للموت بقية

الطبعة الأولى
1445 هـ
2024 م

اسم الكتاب : للموت بقية
التأليف :يسرا ذكري
موضوع الكتاب : رواية
عدد الصفحات : 224 صفحة
عدد الملازم : 14 ملزمة
مقاس الكتاب : 14* 21
عدد الطبعات : الطبعة الأولى
رقم الإيداع :2023/26463
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 667 - 7676

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

للموت بقية

تأليف

يسرا ذكري

دار البشير

إهداء إلى..

غريزتك!

شكر ومحبة إلى:

المصمم والمشرف العام أ/ أحمد شحاتة

المراجع الفنان أ/ خالد الجميل

المدققة اللغوية أ/ إيمان ذكري

وأطبق شفتيه على شفتيها ممسكًا بوجهها، لم يتمكن من تقبيلها فاضطر للصق ظهرها بالحائط وحبس جسدها بجسده، وبالقماشة المُبللة كتم أنفاس أنفها وبدأ يبث في فمها روح من روحه.. يبث حياته في جوفها، نَفَس تعمد أن يخرج من عمق رئتيه أنهى به كل ما ادخره ليهبها إياه بقُبلة حياة وربما تكون قبلة ممات له، وبقوة سرى الهواء داخل رئتيها في محاولة لإنقاذها من غاز مادة الريسين السامة.

أيقن «ألبرت» أن المسافة لباب الخروج من المعمل أطول من زجاج النافذة بجانبهما والتي ترتفع لمتر واحد عن الأرض في الخارج حيث ردهة الطابق وفور ما لمح بعينيه «آدم» يأتي راكضا صوب تلك النافذة وضع خطته في لمح البصر ونفذها وبما تبقى لديه من قوة كتم بيمينه فم «إميلي» حتى تحتفظ بما بثه بداخلها وبذراعه اليسرى حملها ليلق بها موجهًا قدميها نحو الزجاج، صرخ رغمًا عنه وهو يلقي بها نحو الخطر، ولكنه أهون من غاز الموت المحقق، وبالفعل ارتطما بالزجاج فتهشم محدثًا جلبة زادت الموقف رعبًا وفي آخر صرخته قال بصوت جهوري:

-آدم... التقطها

وبعدها غلبته فطرته على التنفس وبعمق.. ومن الريسين!

***

(قبل ما حدث بعامين ينقصهما بضعة أشهر)

ابتلع لعابه بصوت مسموع ذلك الصغير المُسجى على الأرض يود لو كان بسُمك شطيرة وهو متخفي وراء الكثب الرملي الذي اتخذه حصنًا ووِجاء يضع أذنه على الأرض كمحاولة لقياس المسافة بينه وبين الرجل الذي يترصد به إذ يسمع خطواته تقترب، رفع رأسه قليلًا يحاول كبت فضول عينيه عبثًا لتتلقى أذنه صيحة نصر من الرجل فتراجع للخلف فزعا وتلقى طلقة في صدره مباشرة، صرخ وانبطح على ظهره في ذات الوقت الذي انقض عليه الرجل مدغدغًا إياه، انقلبت صرخته لقهقهه وهو يقول بكلمات متقطعة تتخللها:

-أبي كُف عن ذلك أرجوك

قام عنه أبوه وهو يلهث ضاحكًا:

-كنت هذه المرة أكثر حنكة في التخفي والمناورة لكن المرة القادمة أريدك أنت المهاجم

وقف «ويليام» وملابسه لُطخت باللون الأزرق يدب بقدمه معترضًا:

-لو أنك أعطيتني البندقية ذات اللون الأحمر لكنت أنا الفائز لقد حطمت عزيمتي إذ

جعلتني من ذوات الدم الأزرق أبي

ضحك ألبرت وهو يشير إليه ليلتقط أدوات المسابقة من الملعب فأكمل

اعتراضه الصبي: لماذا تدفع للخدم وتجعلني أتكبد عناء حمل الأشياء؟

-فيم إذن ستستخدم جوارحك إن قام لك الخادم بكل شيء! ربت على ظهره وأدخله ليستحم، ثم أتم لياقته وجلس يحتسي الكاكاو الدافئ على أريكته المفضلة المُطلة على حديقته الغنّاء، كما كانت مفضلة عند زوجته بنفس القدر، لم يكن سهلًا عليهما أن يتخطيا فاجعة وفاتها ومن حينها كرّس وقته لشيئين لا ثالث لهما.. ابنه ودراسته، وها هو على مشارف دكتوراه يتحصل عليها من كلية إمبريال ولم يتعد منتصف العقد الثالث من عمره إلا بقليل مُنتقي بحث دقيق خطير، أما ويليام ابنه الذي اقترب من تخطي الثمانية أعوام فكان مشروعه الحالي، يوطد علاقته به كصديق، وربما دفع عربون تلك الصداقة بذلك الملعب الذي أعدّه له مقتطعًا جزءًا غير صغير من حديقة فيلته لتكوين شخصية رياضية ذكية منزوعة الفراغ.. الفراغ الذي يبغضه ولذلك انطلق إلى الكلية بحماس، لم تكن عينه تخطئ نظرات الطلاب الذين يرون فيه حلوى هذا

المكان، شاب فرض نجاحه حتى أجمعوا على تقديره علمًا وفكرًا وذكاءً، بل وجاذبية لم تخف عن قلوب الفتيات ربما لقسمات وجهه المتناقضة عامل ركيز، عيون خضراء أقرب للفيروزية ورثها عن أبيه الإنجليزي مع بشرة خمرية وخصلات شعر شديدة السواد اللامع تنزلق مع حركة رأسه على حاجبيه ولا تتعداهما

-لا أحد يذكرني بنفسي سواك «آدم»

قالها بضحكة مشرقة وهو يربت على كتف شاب أبيض ذو شعر بني منهمك في جهازه اللوحي الذي أزاحه جانبا يقول بابتهاج:

-دكتور ألبرت صباح الخير

-صباح التفوق يا رجل كيف حال بحثك هل أتممته؟

-أعمل عليه ولكني متوتر فالذي سيشرف عليه هو دكتور «دانيال»

- أنت تستحق، ليس أي طالب يكون تحت رعايته، كيف حال صديقك «جون»؟ ينتسب للطب ولا يبدو لأحد أنه المكان المناسب له. ابتسم آدم وهو ينظر إلى جون مصاحبا لأشهر الطالبات انحرافًا: مُورط في صداقته، فهو معي منذ الصغر

ضحكا وانصرف مسرعًا في خطاه متهيئًا لإلقاء محاضرته في تمام الثامنة.

-ملّ الكرسي من نظراتك فكيف بصاحبه المنتَظَر.

قالتها «مارثا» تمازح «إميلي» التي لم تكف عن انتظار دخول دكتور «ألبرت» إلى قاعة المحاضرات حيث ينتظره الجميع إلا هي.. تستنظره.

-ليتكِ تكفي عن مزاحك الدائم لأتم ترقيتك من علقة إلى صديقة.

-تصفين علاقتي لك بالطفيلية!

-أحدثك باللغة التي تفهميها مارثا لولا غرامك بالنباتات والحيوانات ما كنت شبهتك بهم

وكزتها بضحكة قصيرة ما قطعها سوى دخوله للقاعة ومن ثَم دخول إميلي في حالتها المعتادة حينما تراه، انتهت المحاضرة ولم تنتهي من الارتواء دائمًا هي ظمأه فالجميع يرتوي برؤيته والحديث معه إلا هي فلا تجرؤ على الاقتراب رغم أنها ابنة معلمه بروفيسور «سبستيان» إلا أنها لم تستطع أن تُعلِمه أنها ابنته، فقط تتابعه في الظل.. أوليس للظل نهاية! رددت كلمتها بتنهيدة بددها الارتباك حينما لمحته يخرج من مكتب والدها وفور ما اختفى عن نظرها حتى اقتربت

-معذرة يا آنستي غير مسموح بالدخول

تعجبت من موقف الحارس وقالت باستنكار:

-إنه مكتب والدي بروفيسور «سبستيان»، أنت جديد هنا

أليس كذلك؟

ارتبك قليلًا:

-نعم أعلم ولكنه أمر دكتور ألبرت بأن لا يدخل أحد

-وما علاقته بمكتب أبي! انزوت بعيدًا تتصل بوالدها حتى علمت منه أنه كافئ تلميذه بمكتبه كهدية تقدير، وأن الأمر مازال حديثا فلم يتم نقل متعلقاته سوى صباح اليوم. أغلقت الهاتف واستحضرت ثقتها واتجهت نحو الحارس تقول:

-لقد أخذت الإذن بالدخول لأخذ أشياء تخص البروفيسور فلقد كلفني بإحضارها وها هو المفتاح معي أترى؟

ما كان يجرؤ على منعها خاصة بعد إظهار بطاقة هويتها وفي لحظة كانت بداخل المكتب لكنه اختلف كما أنه ليس هناك ما يخص أبيها من الأساس ولم يكلفها بإحضار شيء فقط اختلقت عذرًا لتنتهز فرصة الدخول لعالم صغير من عوالم ألبرت، خطت ببطء وتأمل وكأنها لو أسرعت سيُسمع لقدميها صوت يصل لأذنه أينما كان ويضبطها وكأنها ستكسر شيئًا داخل متحف ثمين المحتوى، اتجهت نحو النافذة تلتقط للمشهد خارجها صورة في عقلها فقط لمراجعة ما قد تقع عليه عيناه، انتقلت بين زوايا المكان حتى حينما يمر يلتقوا وإن اختلف وقت اللقاء! بهيام نظرت لمقعد مكتبه جلست عليه

ومررت أناملها الرقيقة على صف أدراجه حتى تتلاقى الأنامل شعرت بشوق إليه تشتم عطر حضوره و...

-لعل مقاعد الكلية كلها لم تناسب سموك حتى أنك لم تجدي سوى مكتبي كمكان للاسترخاء!!

قالها ألبرت بعدما دخل عليها وهي لا تشعر مغمضة العينين مبتسمة تغوص في مقعده ويديها تتحسس الذراعين، ثبتت لحظة من الصدمة والخجل، لم يكن عطر حضوره من خزائن ذاكرتي إذن بل هو حاضر بالفعل وبجانبي!! لم تستطع فتح عينيها إلا بعد بضع ثوان أمنية منها أن ما سمعته نسج مخاوفها أو أنها إن لم تنظر فلن يكن موجودًا أليس كذلك؟ لعله سيُصرَف إن لم تعره انتباهًا.. لم يكن صبورًا لهذا الهراء:

-أرجو أن يكون هناك مبرر منطقي لوجودك في مكتبي

انتفضت واقفة تخفي ارتجافها بقدر يسير تجاوبه بعينين حائرتين يكحلهما الخجل:

-إنه مكتب البروفيسور سبستيان وأنا أكون ابــ

زادت حدة صوته:

-وهل مكتب البروفيسور أصبح متنزه للطلاب؟!

فتح أحد أدراجه والتقط قلم وورقة في سرعة وهو يقول بلهجة تأديبية:

-اسمك والقسم المنتسبة إليه

وقبل أن تنبس ببنت شفة وجدت عبوسه يشتد ويرجع ليفتح ذات الدرج الذي التقط منه الورقة يبحث عن شيء بقلق تحول في ثانية لغضب لم تره في ملامحه قط، أسند كفيه على سطح مكتبه وقام ببطء متحفز ينظر إليها بقسوة يكسوه الوعيد كما كان صوته:

-أيتها السارقة سلميني فورًا ما بحوزتك بهدوء حتى لا أصعد الأمر

-مــ ماذا! أنا لم أسرق شيئًا

قلبها يتحمل فوق طاقته ليس فقط لقسوة الاتهام، بل الأدهى هو أنها في مواجهة الشخص الوحيد الذي تتمنى ود قربه أصبحت أبغض الناس إليه، التف بسرعة من حول مكتبه وصولًا إليها وأغلق الباب بعنف ارتج له جسدها واقترب منها بشدة ارتجف منها قلبها ليس بين عينيهما سوى شبرين وقال بصوت منخفض يضغط فيه على كل حرف:

-ذاكرتي المحمولة معك فأخرجيها حتى لا أخرجك من هنا بصخب فضيحة تعرقل عامك الدراسي بأكمله.

-لم أسرق شيء من أحد حتى أسرقك أنت.

أمسك ذراعيها بقبضة مؤلمة واشتد عبوس حاجبيه وانسدل شعره عليهما وكأن فيروزية عينيه كادت تتحول لناريتين تلفح أنفاسه وجهها وقد ارتفع صوته:

-مشروع علمي نادر أعمل عليه منذ سنوات تسرقه طفلة وتعتقد أنها ستفلت مني!!

-لم يكن لهذه الطفلة أن تلوث شرف المعلم الأصلي، لم أكن لأسيء لسمعة أبي البروفيسور سبستيان

أرخى قبضته يقول بكلمة مقتضبة:

-هويتك

التقطت من الأمر حبل نجاة وفتحت حقيبتها بارتباك تتساقط بعض أشيائها حتى ناولته إياها

-ألم تلحظي أن سيدي نقل متعلقاته؟ وجودك رغم ذلك يثير الشبهة

وقبل أن تفكر في جواب كان بداخل الغرفة أفراد من أمن الكلية نظرت بفزع إليه حتى قال:

-ضغطت على استدعاء الأمن فور اكتشافي للسرقة

-ما الأمر سيدي هل هناك خطب ما؟

قالها أحدهم وعين ألبرت الخبيرة تلتهم مُخرجات الموقف حتى أخذ بيدها مدهوشة من لطف قبضته وقال لها بأدب جم:

-شاكر لكِ حضورك ومباركتكِ وأرجو إيصال بالغ امتناني للبروفيسور

وما كانت قبضته ليديها إلا ليدير اتجاه وجهها عنهم حتى لا يلاحظوا ملامح الذعر وهي مسلوبة الإرادة أينما يوجهها فهي تحت الطوع تخرج من الباب ومن الموقف برمته، حبست بداخلها الدهشة من تصرفه الذي قدم شيئا من تفسيره بنظرة نافذة لعينيها قبل أن ترحل توحى بـ.. سأحررك ردًا لجميل أباك.. إلى حين

***

دارت في غرفتها تلتهم أرضيتها جيئة وذهابا بعدما علمت أنه حدد موعد مع أبيها لابد أنه متعجل ليشكوني له

- سيدي تفضل من هنا رجاء

قالها الخادم فور دخوله من باب الفيلا وتبعه في خفة يطوي الأرض المرصوفة ولم يفته الانتباه إلى السور القصير الذي يلتف حول مبنى الفيلا بارتفاع متر وعرض نصف المتر مُفرغ من داخله

مزروع بعناية بألوان من النباتات المختلفة، لا يعلم لماذا شعر بشيء من الانقباض وهو يتأمله قبل أن يُشتت انقباضه صوت الخادم إذ أشار بأدب:

-تفضل بالانتظار هنا سيدي

انتبه لصوت ثلاثة أرجل.. قدمان وعصاه، فقام باحترام ومدّ يده مصافحًا فاستلمتها يد البروفيسور مرحبة كما كان صوته:

-مرحبًا بمكتشفنا الهمام، أهلًا بك بُني

-إنه لشرف لي سيدي أن أحظى بلقائك وتشجيعك

قالها بامتنان في ذات الوقت الذي حضر فيه المشروب الساخن يرتشف منه البروفيسور ببطء وهو يغمض عينيه مستمتعًا بالدفء قبل أن يقول:

-أمضيت حياتي في طريق العلم لم أحول عنه يومًا ولذلك أقدر كل من سلك نفس الطريق لأنه شاق على قدر متعته، وأنت برهنت على رغبتك في الصدارة

ابتهج ألبرت ليس فقط للمدح، ولكن لأنه بصُحبة هذا الرجل الذي لطالما أحب ملامحه الطيبة وعيونه الـودودة رغم اللمحة الإنجليزية الجادة، لم ينتظر تعليقًا منه فاستطرد باهتمام:

-موضوع رسالتك كان مفاجأة للجميع، رغم أنه ذو حدين إلا أن فائدته طغت على أي قلق منه لاسيما مع الضمانات والأحكام

بادله الإقرار بذلك في حماس رزين:

-وهذا ما حرصت عليه... الضمانات، بحيث تتم الاستفادة قدر ما يُمنع الضرر

لاحظ نظراته لسور النباتات:

-إنها مارثا راعية نباتات حديقتنا المهووسة صديقة إميلي ابنتي، عاشقة لعلم النباتات ويبدو أننا محل تجاربها هنا

قالها مقهقها فبادله ضحكته التي اختصرها ليبدأ في طرح سبب مجيئه اليوم، وبينما هما منهمكان في حوارهما الذي تود إميلي لو أن يصمتا عنه أو تلتقط منه طرفا، فهو لم يدع لها وقتًا لتصارح والدها بما حدث، دفعها فضولها للحضور حولهما تحوم على بعد أمتار حتى التقطتها عينا والدها الذي أشار لها بالحضور، ندمت أنها خرجت من غرفتها فالآن سيكتمل الخزي، تقدمت ببطء تثقلها قدمها ومثلت كمجرمة أمام هيئة المحلّفين

-ماذا بك عزيزتي ألم تتعرفي على مدرسك

التفتت له بوجل فوجدت ابتسامته جامدة

-أهلًا إميلي

-مرحبًا بك دكتور ألبـــ...

حشرج صوتها فتنحنحت بحرج فوارى ما ألم بها إذ وقف باحترام شديد قائلًا:

-اكتملت سعادتي بلقائك اليوم سيدي ولم أطيق صبرًا حتى أتشرف بزيارتك لأشكرك على كرمك في منحي مكان مكتبك في الكلية وما أعتبره رفعة وإشارة لنجاحي

- قام وربت على كتفه بلطف:

-أنت تستحقه بجدارة

مشى في خطى رزينة نحو المخرج وخطى البروفيسور نحو الداخل وظلت هي في مكانها يتساءل عقلها.. إذن هل هذا يعنى أنه لم يخبر أبي بما حدث!

-نعم لم أخبره

انتفضت ليس من كونه واقف بجانبها على غير توقع وإنما لأن إجابته جاءت مطابقة لسؤال طُرح فقط بين زوايا ذهنها

-لم يكن من الصعب ترجمة سؤالك من ملامح وجهك «أماندا»

-إميلي

-آه نعم... إميلي بالأمس رُفِعت البصمات وثبتت براءتك فلقد تواجدت بصماتك على كل الأدراج عدى الدرج الذي كان يحوي مدمجتي

تلاشت ذكرى التحقيق ورفع البصمات ونظرت إليه بعيون مليئة بالفرحة والاطمئنان وكذا الامتنان:

-ماذا ستفعل في مشروعك وقد سرقت الذاكرة

-نسخة المشروع على المدمجة نسخة ثانوية فهو مازال معي، المشكلة فيمن بحوزته الذاكرة إما لسرقة أو أنها فقدت مني، على أي حال لا أعتقد أن من سيجدها بارع في حل كلمة السر والسؤال الأبرز هو... وهنا التف بجسده كله ليواجهها بنظرة ثاقبة:

-ماذا تفعل بصمات أناملك على مكتبي بهذا الشكل؟؟

-حتى تلامس أناملك أو تكون لبصماتك فـراش وقتما تُلامس... أيهما أسبق.

ما كان لها أن تنطق بهذا المبرر ولا مبرر سواه فقط اكتفت بنظرة

حاول ترجمتها فكانت ذات لغة لا يفقهها، وحينما طال صمتها وانتظاره انطلقت مسرعة بلا جواب ولحقتها نظراته الحائرة حتى توارت والتف منصرفًا بهدوء

***

فخ آلي

-لم أكن لأتخيل أن المرور بهذه الكمية كان سهلًا رغم محاولة الشرطة لمسح المنطقة إلا أن خطتك كانت جهنمية «ماك». أطلق جملته بسعادة هذا الأنيق الذي أخرج كبسولة دواء عادية وشقها نصفين ليتأكد من جودة صنف المخدرات الفتاك الذي مرره بحنكة من حدود لندن وصولًا إلى كنسينجتون

-حسنًا ولم تذكر أن المخبأ نال إعجابك أيضًا

ضحك الأنيق بسخافة:

-حسنًا صديقي ولكنه مزعج ألا ترى البعوض من حولنا

امتعض ماك:

كيف سأستطيع أن أوفر لك مكانًا أرقى من هذا! في أقدم أحياء كنسينجتون ثغرة لا تعلمها الملكة إليزابيث شخصيًا

زم شفتيه الأنيق وهو يتمتم: لهذا هو كذلك.

انهمك في وضع المادة على جهاز صغير لكشف جودتها

شششش.. لوح لبعوضة تحوم حوله واستشرف الأمل وجه

ماك وهو يترقب الشاشة فلو ثبتت جودة هذه الدفعة سيصبح من أغنى الأغنياء فلم يصبر حتى قال:

-اجعل هاتفك على وضع استعداد لنقل المبلغ لحسابي على الفور

-اصبر ألا ترى أنا أعمل

قالها بحنق والبعوضة أحضرت أختها حتى كاد أن يجن جنونه

-افعل شيئا ماك اقتل هذا البعوض حالًا لا أستطيع مباشرة عملي

وفي نهاية كلماته كان الجهاز قد أضاء بلونه الأخضر واصطفت بعض المعلومات المشيرة لجودة المادة فنسيا أمر البعوضتين وأطلقا صيحة النصر وبينما هما يتبادلان ترتيب خطواتهما التالية حتى وقفت بعوضة على ذراع ماك فقال ضاحكًا:

-ها هي سأخلصك منها

وقبل أن يصفع ذراعه بكفه حتى يقضي عليها اتسعت عيناه وفغر فاه والأنيق ينظر له بتعجب مشوب بالقلق حتى وقع على الأرض بقوة، لا يعلم الأنيق لماذا ارتاب بشأن البعوضة! ولكن قبل أن يتأكد من ريبته كانت الأخرى بين عينيه، صرخ بصوت كصريخ النساء ورجع للخلف حتى ارتطم بالحائط وسقط كما سقط ماك بعدما تألما بشدة من لدغات لم يعهداها من قبل

رحلتا البعوضتان بعدما أغلقتا الماسح الضوئي ومعهما صور وتسجيلات بالعملية بأكملها وبعينة من دمائهما

وإلى غرفة مظلمة طارتا البعوضتان الآليتان بشكل يحاكي البعوض الطبيعي حتى استقرا على مكانهما الذي خُصص لهما مسبقًا لتعبئة عينة الدماء التي سحبوها من المهربين ولتفريغ المعلومات المسجلة في ذاكرتهما، وبحنكة وسرعة تم العمل على تفريغ كل ما يمكن أن يُمتص من بعوضتين! وما إن انتهوا حتى أضئ نور الغرفة واكتظت بتصفيق حاد وابتسامات نصر

-نجحنا وبدون أي خسائر مفتش «تشارلي»

فقال «تشارلي»:

الفضل يرجع للـ«صانع» ما كان للشرطة والمباحث أن ينجحوا في حل قضية كهذه إلا بما يقدمه من حلول. التفت إليه بفخر نائب الصانع وقال:

-نحن في خدمة المملكة وأجهزتها أيها المفتش

ابتلع تشارلي أسلوبه وأصدر أوامره لمن معه بإنهاء المهمة وانطلق إلى مكتبه في حزم يتبعه زميله «ستيفن» بزييهما الأسود الرسمي وفور ما أُغلِق الباب ووضعا قبعاتهما ذات اللون الأسود والمربعات الصغيرة البيضاء قال بحيرة:

-أنا لا أفهمك تشارلي لماذا يتكرر غضبك المكتوم من التعامل مع الصانع ولقد وفرعلينا الكثير ألا ترى! لقد منح طاقمك الحياة ولم يجعلهم في مواجهه مع المهربين، العملية تمت بنظافة ودقة ولم تحدث أي مواجهات تستجلب صخب ومزيد من المعدات والسلاح ولفت نظر العامة ومن ثَم الحفاظ على الأمن والاستقرار العام.

التف تشارلي حول مكتبه يجلس بعصبيه يقول بحنق:

-ألا ترى استغلاله لجهاز مخابراتنا واستنزاف الأموال، بالإضافة لغموضه لا

يُباشر أعماله إلا عن طريق النائب ولا نعرف عنه شيئا ولم نستطع اختراق أي معلومات تخصه ألا يستفز هذا حسك الأمني؟ ثم انظر إلى نائبه كيف

يتعامل معنا بغرور، لولا أمن بريطانيا ما كنا لنوافق على التعامل معه ولا استخدام اختراعاته

جلس ستيفن قائلًا بحماس:

-فليركب غروره وليُسحق به في الجحيم ولكن نستسيغه حاليًا لدفع الأذى المترصد بالبلاد

تفل تشارلي ما تبقى من قشرة شفتيه الرفيعتين يعضهما بغيظ

ينظر لستيفن بعينيه العسليتين قائلا:

-نعم فقط ينهي عمليته القادمة ويذهب إلي الجحيم، لن يصلح لها سواه، فريق البحث الجنائي لم يظهر تقصيرًا بل استنفذ كل ما يمكنه أن يفعله

-تقصد قضية الديب ويب؟ إنها أثقل ما يكون على السكوتلاند يارد ولعل تعاونه معنا يُضفي نفعًا رغم أنني لا أعرف كيف سنتوصل لطرف خيط يُوقِع بهؤلاء الأوغاد

قام تشارلي بعنف التف معه كرسي المكتب ذو العجل دورة كاملة كما كاد يقف شعر رأسه الأصفر القصير ليجعل مع احمرار وجهه الأبيض صورة مُلخصَة للغضب مقطب جبينه يقول بحدة:

-أوغاد فقط! إنهم وحوش بشرية يا صاح، أنا لو لم أوقع بهم سأقدم استقالتي لأنه مهما نجحت في غير هذه القضية فسأكون فاشلًا بفلاتها، أي جنون يصل لدرجة أن يتهجم شاب على ذراع طفل في الحافلة يخلعه ويقضمه، وآخر يرتدي تلك الأنياب الصناعية ينقض على رقبة سائق سيارة أجرة يمتص دمائه، هل أُدخِلنا في رواية أسطورية يتصدر أبطالها دراكولا!

ضرب الحائط بقبضته مستأنفا:

-سنضع أيدينا في يد الصانع لننهي هذه القضية، نحن حتى لم

نصل لموقعهم المشفر بشكل خارق للعادة بل ويتبدل بصفة مستمرة، غرف البحث الجنائي المكتظة بعدد الباحثين يتضافر معهم الليل بالنهار في سبيل اكتمال خيط واحد يتتبعونه وللأسف لابد من أن يُقطع قبل بلوغ منبعه! الصانع ليست مهمته التوصل إليهم ستيفن إنها مهمتنا نحن، وهو ينتظر إشارة البدء ليبتكر لنا شيئا ما من أشيائه لنحل قضيتهم بلا خسائر، لو فقط نمسك أحد هؤلاء المجرمين، ولكنهم يتفلتون من بين أيدينا كالزئبق

-ثم وإن لم نتمكن من التغلب عليهم تشارلي؟

نطق بصوت يشوبه التحفز:

-ستكون انجلترا في خطر داهم وربما العالم أجمع

***

حُب إلى حين!

-هل أنتِ واثقة من اختيارك مارثا؟

قالت كلماتها إميلي وهي منهمكة في وضع لمسات جمالية على وجهها بينما الأخرى ممددة على الفراش في غرفة الأولى تجاوبها بشرود:

-لا أدري ولكنني وقعت في حب جون، أحببت تردده عليّ في المتجر ينسق معي عرض النباتات ويبدي آرائه ويضحك على مزاحي ويستمع لي، على الأقل يستمع لرأيي أفضل منكِ، ألم أقل لكِ مرارًا أن اللون الوردي للصباح فلتضعي هذا الأرجواني أو القرمزي

-أنتِ تعلمين أنني لا أحب الألوان القاتمة

-ولماذا اشتريت مني كل هذه الألوان؟

-أنا أحب والدتك وأثق في منتجاتها، على ذكر ذلك... ماذا فعلت في دفعة الشحم الفاسدة؟

جاوبتها وهي تضبط لها شعرها:

-كتبت مذكرة بفساد الدفعة وألحقت بها عينة وقدمتها للمسئولين واستبدلتها، عملها صعب لكنها تحبه، حلمها أن تنشئ مركزها الخاص بالتجميل فقط من مواد آمنة من شحوم الحيوانات وجلودهم وخلافه ولكن صعوبة الأمر تكمن في الإجـراءات والسماح بأجزاء معينة وتصاريح، كل هذا يعرقلها تتعثر كلما تقدمت

-أنتما تكملان بعضكما حقًا

-أعلم لماذا تثرثرين بعيدًا عن الأمر الهام الليلة

ابتسمت إميلي بشوق مدمج بملامح متوترة فاستطردت مارثا بصدق:

-أنا أعلم كم تحبين ألبرت وهذه فرصة تقربكما لبعضكما، خطوة كبيرة أن يدعو والدك إلى حفل ذكرى ميلاد ابنه سيراكِ بشكل مختلف لن يرى فتاة الجامعة بل سيرى فيكِ الأنثى

-ولكن تذكري... أنتِ التي دعوتني للذهاب وليس هو.

-نعم أنا اقترحت عليكِ التطفل ألستِ ابنة معلمه، ثم لابد من استغلال أي ثغرة تسمح لكِ بالاقتراب وله بالانجذاب.

وهنا جذبت إميلي اللون القرمزي ليلامس شفتيها ولا تعلم أنه بعد قليل سيُمحى من فرط توترها حينما سيقابلها ألبرت في الحفل

بجفاء وسيقول:

-وضعت في خزانتي لديكِ استفهام منذ أيام ولم تجاوبيني عليه وها أنا أزد رصيدي باستفهام آخر... ما الذي أتى بكِ إلى هنا!

ثم إنها لم تكن تدري أن ظل العيون الذي تُحكم طرحه على جفنيها لم يكن ظله ليخفي حزنها وانكماشها طوال الحفل السعيد للجميع إلا هي

ثم أيضًا لم تكن تتوقع أن كحل العيون الذي أتقنته لن يكن كإتقانها إنقاذ الطفل ويليام من الغرق في مسبح الفيلا والذي سيكون حادثا مروعًا للجميع وأولهم والده الذي سيرتجف.. ستتعلق عيناه بها أملًا ورجاءً بعدما غمرتها بالجفاء، ويكأن دورة تعلم الإسعافات الأولية التي درستها في الإجازة لم تكن إلا لحادث الحفل!

وياليتها تعلم وهي ترتدي وشاحها البراق أنه سيُحتَضَن من أحب الناس إليها

حينما سيجذبها ألبرت بقوة ويضمها إلى صدره وستسترخي تماما بين ذراعيه غير مصدقة، لن يستطع التعبير فلا كلمات عنده تعادل إنقاذ ابنه، سيأخذها من صدره ويحتضن وجهها بكفيه وينظر لعينيها بمزيد من الامتنان ومن ثَم سيتركها.. سيتركها بقلب أكبر مما ذهبت به.. قلب متخم بالحب

انتهى الحفل وعادت.. نامت.. وقامت.. ومساء يليه صباح وهي مُغيبة إلا من هيامها، مازالت تتنعم بدفئه إلى الآن لا تصدق أنها ولو للحظة كان الذي يؤويها عن العالم هو عناقه، انتفض قلبها مع نداء هاتفها وهي تتوقع مكالمة منه ترغب بها تحلم بتفاصيلها تـ

-الآنسة سبستيان؟

تلقت أذنها صوت جاف على الطرف الآخر فأجابت بتساؤل تضافر مع إحباطها

-نعم ما الأمر؟

-قُدم بلاغ سرقة ضدك وأطالبك بإجراء تحقيق

انهارت على مقعدها، هل من المعقول أن يكون إنسانًا بهذا الجمال يمتلئ بهذه الخسة، بالكاد اقتطعت من بين غضبها صوتًا مختنقًا:

-لم يحدث

-ماذا إذن عن كشف بصماتك على مكتب دكتور ألبرت

-كيف له أن...

فقاطعها الصوت قبل أن تُكمل:

-وماذا عن قلبكِ... هل تحسس موضع قلبه حينما ضمك إليه؟

قامت كالمصعوقة.. د... دكتور ألبرت؟!!

أعاد صوته لنبرته الطبيعية وقال مبتسمًا:

-هل نجحت في إيقاع قلبكِ؟ -قالها يقصد الأمرين-..

-وأنا التي ظننت أنك أبلغت عني

-كيف لي أن أفعل مع من ردت إليّ حياتي أيكون هذا رد الجميل! ، بل أنا مدين لكِ

ذابت تمامًا مع سؤاله الحنون:

-ثم ماذا بشأن أناملك... هل تقبل أن تحمل لي خاتمًا الأحد المقبل؟

وكذلك..

ضحكت والدة مارثا بشدة وهي تستمع إلي البروفيسور سبستيان يُلقي نكاته

-سيدي كنت أتوقع أن من هم في مقامك يكونون عادة عابسون يعملون ولا وقت عندهم إلا لهذا

ضحك وقال بطيبة مازحًا:

-بل من كثرة حبي للضحك كنت أقع من شدته حتى أصبحتُ

بثلاثة أرجل، قالها وهو يضرب الأرض بعصاه التي انتشلتها إميلي ترفع بها فرع الأنوار وانطلقت بخفة مع أنغام الأغاني الاحتفالية في بيت ألبرت، جو مليء بالود والسعادة حاوط الجميع ومر حفل الخطوبة برقة بل وسرعة خفقات أجنحة الطيور... جناح يحملها لارتواء لم تكن تحلم به والجناح الآخر يحمله لحياة جديدة مشرقة وبصبيانية محببة خطف يدها وجرى بها نحو الشارع يتمازحان ويلعبان حتى صرخت بفرحة لرذاذ المطر الذي بدأ للتو يشاركهما مرحهما تسأله بانبهار:

-لم أكن أعلم أن كل هذا بداخلك

-هذا هو الحب فاهنئي. هذا الذي تتلهف الفتيات لجواره سيكون بين أحضانك ولكِ وحدكِ، نعم ربما لا أستطيع السباحة في الحب الأسطوري ولكن يكفيني جوارك، أنتِ في عيوني أميرة منقذة، لا تؤاخذيني أنني مازلت كلما تحدثت معكِ أذكر موقفك مع ابني، هذا الأمر مِفصل في حياتي لا أنكر أنه هو الذي جذبني إليك

-إذن فدخولي لعقلك محتوم ودخولي لقلبك مرفوض؟

نظر لها بعمق صدوق: اعلمي أن مدخل العقل أوثق ممن يدخلون إلى القلب مباشرة فيبقى احتمال نبذ الأول لهم موجود، عكس من دخل مثلك من طريقه فقد حاز رضا المتصارعين دائمًا

لينسجما ويصبح لُب الفؤاد لكِ حليف

-لا يهمني ما الذي جذبك إليّ ولا من أي جهة تسللت بل أنا أحسب أن ما تعلمته في دورة الإسعافات الأولية لم تكن إلا لتلك اللحظة وحتى لو لم أكن أعني لك شيئا سوى أنني أكون له أم... أكون لك وعاء تفرغ فيه أحزان الماضي وأعباء الحاضر ومخاوف المستقبل فسأكون.

بثت كلماتها بداخله نشاط ووفرة من الإشراق أمسك كفيها بيديه الاثنتين تُبارك فرحتهما قطرات المطر وقال بحماس:

-لا مبرر لتأخير الزفاف... الأسبوع المقبل؟ لا بل غدا. ثم احتضن بعينيه ملامحها وبهمس شغوف استطرد:

-الليلة...؟ أنا أهب لكِ مشاعري وجسدي إميلي

-بل نصبر حتى يعتاد ويليام على وجودي في حياتكما لنكن أسرة بحق

وهنا لم يستطع الصمود أمام غزارة حبها ولم يهدأ قلبه حتى ضمها بقوة، ارتجفت لسريان الدفء بهذه السرعة من حرارته وسط برد لندن الحثيث

❋❋❋

فاجعة المترو

- مفتش تشارلي أريد قوة على الفور عند محطة مترو «إيرلز كورت» راقبنا المشتبه به وهو يحمل حقيبة تم الكشف عنها خلسة بأجهزتنا والصورة تشبه إلى حد كبير أعضاء بشرية مقطعة. قالها أحد جنود الشرطة بكلمات سريعة لاهثة فانتصب تشارلي كالمصعوق في حين دخول ستيفن عليه بقوة يقول:

-جاءتنا الإشارة

قال تشارلي وقد كان يتهيأ للتواجد بنفسه في مكان الحدث:

-نعم علمت للتو هيا بنا لابد من القبض على طرف الخيط هذا

-لا بل اترك لي هذه المهمة لقد أعددت الفريق بالفعل

-بالتوفيق ستيفن.. بالتوفيق

-لقد رصدنا المشتبه به إلى أن اجتمع باثنين آخرين وعرفنا اتجاههم وانتشرنا بالفعل في أنحاء المحطة. قالها أحد الضباط لستيفن فور وصوله، أومأ برأسه وهو يراقب بعينيه الضيقتين الزرقاوتين عن كثب هؤلاء الثلاثة وقال بأسف:

-سنضطر لإثارة الذعر رغمًا عنا

كان يعلم جيدًا أن مرآى القوات الخاصة تحف بالمكان كفيل بذلك ولم يكن ليخلي المحطة حتى لا يتنبه المجرمون، قطع تفكيره بما يجب أن يقال:

-قفوا باسم القانون

التفت الشباب الثلاثة لعدد أفراد الشرطة الذين حاوطوهم يتقدمهم ستيفن وبدأ الناس بالانتباه لما يحدث بين همهمة وتساؤلات وابتعادهم عن دائرة الحدث

-ما الأمر ماذا هناك؟

قالها أحد الفتية فأخرج سلاحه ووجهه ناحيتهم:

-ستحضرون معي على الفور هيا

نظر الفتية لبعضهم نظرة غير مريحة وقال أحدهم بمكر:

-هل تريد تفتيشنا أيها الضابط هيا افعل

وقدم له الحقيبة أمامه، ارتاب من التصرف غير المتوقع.. أوليس من المفترض أن يهربوا أو يمنعوا الشرطة من فتح الحقيبة؟ أم إن كاشف محتويات الحقيبة أظهر تقرير خاطئ عما بداخلها!، ورغم الحيرة وعدم الرغبة في فتح الحقيبة وسط العامة إلا أنه بدا غليظًا صلبًا

يهددهم وهو يشير بعينيه لبعض أفراد القوة الخاصة كي يقيدوهم:

-لا تتعجل يافتى سيتم ذلك كله بداخل قسم الشرطة

لم ينطق الفتى بحرف وإنما نطق بفعل، فتح حقيبته فجأة وبسرعة دفعها في وجه ستيفن حتى تناثرت في الهواء أعضاء بشرية بدمائها حتى ارتطمت بوجهه قبل أن تقع على الأرض ليظهر كنهها، لم تكن أيدي وأرجل كما المتوقع، ولكنها كانت بطن ومؤخرة وفك بلسانه!

كاد صوت الصريخ يصم الآذان، ولكن الصدمة والتقزز لم يعرقلا ستيفن الذي ركض خلف الفتية الذين فعلوا فعلتهم وانطلقوا هاربين

-تجمدوا مكانكم وإلا أطلقت الرصاص. يعلم أنه ممنوع قتلهم حتى يتم استجوابهم ومدى ضرورة ذلك، ولكنه كان يطلق تهديده عبثًا فهؤلاء لا يبدو على وجوههم الخوف إنهم يركضون وهم يضحكون! ركز على أبطأهم وبقفزة قوية وثب في الهواء مزمجرًا لينقض عليه وبسرعة غير متوقعة جرحه الفتى بخنجر في ذراعه وثبته على رقبته ليذبحه في غمضة عين، ولسبب ما سقط الفتى بجانبه جثة هامدة، نظر بعينين متسعتين يبحث عمن ألقى الرصاصة فإذ بالمفتش تشارلي خلفهما

-جئت في التوقيت المناسب

-لم استطع المكوث في مكتبي وأترككم لهذه المهمة

قالها بنظرة غضب هائل تجاه الفتى واستأنف جملته:

-هيا ليس هناك وقت مازال هناك فرصة للتمكن من البقية.

انطلقا ليجدا فرقتهما قد تمكنت من حصار الفتيان الآخران على رصيف المترو والعامة يشاهدون رغبوا في ذلك أو رغمًا عنهم فقد أغلقت مخارج المحطة عليهم ودخل تشارلي منطقة الحصار بخطوات قوية يقول بصوت جهوري:

-لقد تمكنّا من صاحبكما قتيلا وأنصحكما وفرا على نفسيكما واستسلما على الفور وإلا جعلناكما من العجزة طوال عمريكما لكما الخيار

قال ستيفن بحزم عبر جهاز التواصل في أذن أفراد الفريق:

-اهجموا الآن

وفي نفس الوقت الذي همّ الفريق نحوهما واستعداد تشارلي وستيفن بسلاحيهما قاصدين أرجلهما تحسبًا لأي هروب حتى ركضا الفتيان بدورهما نحو المترو القادم

صرخ ستيفن:

-سيركبان المترو وسط الناس أدركوهما قبل أن يفعلا. كاد

ينفجر وهو يرى المترو الذي أصدر أوامره بإيقاف حركته وحدث ما لا يُتوقع! حدث ما جعل تشارلي يفرغ فاه ويسقط السلاح من يد ستيفن كدمية بيد رضيع ويشهق كل من في المحطة حرفيًا، هذا لأن الفتيان فعلا شيئًا لم ولن يخطر ببال أحد.. على الإطلاق!!

❊ ❊ ❊

تضحية

-متى ستنهي رسالتك ألبرت وهل هناك جديد بخصوص الذاكرة؟ طرحت إميلي سؤالها أثناء ترجلهما داخل الكلية، تغيرت ملامحه وقال بشيء من الضيق:

-إلى الآن لا أعرف أين ذهبت ولكني وطنت نفسي على أنها فقدت مني إلا أن شبح السرقة مازال يؤرقني، أما عنها فلقد كدت أنتهى منها شغوف باطلاعك عليها، تخيلي لو أن جندي كما يحمل بشكل أساسي سلاحه يحمل معه عقار يتناوله إن وقع في الأسر فلا يشعر بألم إن عُذِّب وبالتالي حافظنا على هيبة جنودنا وحفظناهم من الخوف بل سيُظهر لعدوه جَلد وقوة، وكذلك العملاء السريين وبعض أعضاء السكوتلاند يارد كل هؤلاء لابد لهم من تأمين وحافز على الاستمرار يمنحهم الصلابة ونسبة الخطر معهم لن تتعدى 9٪

نظر لعينيها المبهورتين واقترب منها بنفس الصوت المنخفض، ولكنه أكثر حماسه:

-بل تخيلي أيضا رجال المطافئ وهم يعملون وسط النيران كيف سيساعدهم إن أصبح جلدهم لا يستقبل ألم الاحتراق ولا يترجمه، أو أشخاص حوصروا بداخل مبنى يحترق وخطة الوصول إليهم أو

خروجهم ستستنفذ وقتًا، وإلى حين ذلك قد تطال أجسادهم النار فيمكن إيصال جرعة صغيرة لهم ربما لن تحجب عنهم النار ولكنها ستزيل ولو ٪80من ألم الاحتراق حتى لو ماتوا فسيموتون من أثرها وليس من الألم... هدفي هو زوال الألم.

-لم أكن أعلم أنك عبقري هكذا، امض في رسالتك ولا تبالي بالقلق

تنهد مُزيحاً قلقه محولًا مسار الموضوع:

-وصلنا المعمل عزيزتي كما تعلمين هو المكان القريب إلى قلبي

نظرت للمكان نظرة سريعة بخزاناته الحمراء المرصوصة والطاولات البيضاء المكتظة بقارورات مختلفة الأحجام واسطوانات غازية كبيرة لا يخلو المكان من رائحة العمل ورغم أن الهيئة البيضاء لأرض وسقف المختبر، بل ورداء المتواجدين الرسمي إلا أنها تنقبض دومًا من المرور به ويعكر صفوها التواجد بداخله وتتعجب في صمت لماذا أصر والدي اتباع خطواته بمجال كهذا لا أحبه! ولكنها توقفت ليتوقف هو وقالت بصوت هامس:

-ربما سأكره هذا المعمل أكثر لأنه نال بقرب قلبك مكانة لم أحظ بها وأتساءل لماذا لم أسمع منك كلمة أحبك لأشعر أن لي بداخلك كما له.

قالتها وعينيها تبحث فيما بين جفنيه عما تتشوق إليه فعبس هو باهتمام مُحب وقال:

-ليس هناك أفضل عندي من هذا المكان لأهمس لكِ بما حِيك بداخلي، أنا حقًا إميلي أحببتـــ...

قطع كلمته المنتظَرَة ولهفة أذنها وقلبها صوت فرقعة مكتومة نظر على إثرها بحدة فتركها واقترب ففوجئ بصوت أحدهم من الداخل يقول بهلع: تسريب تسريب ابتعدوا

وهنا أشار لها بحزم أن ابقي هنا وانطلق علَّه يساعد من بالداخل حتى فهم ما تعنيه وجوه الهاربين وكأن الموت تجسد ليلاحقهم.. أخلوا المكان على الفور تسريب «الريسين»

اتسعت عيناه بشدة، مستحيل الفرار من سرعة انتشاره، لم يُضع الوقت ورجع إليها والغاز بسرعة جنونيه يحتل المكان وكأنه ينوي أن يطرد الناس منه ومن الحياة وحينما يستحوذ الريسين على مكان فلابد من الهروب لا المواجهة، وهي لا تعلم مدى خطورة ما يحدث ولا مجال للشرح والغاز أصبح موازيًا لسرعته، شق قميصه وهو لا يتوقف عن الحركة نحو موقعها وبسرعة خاطفة بلل قماشة قميصه المقطوعة بماء صنبور جانبي وهرول في طريقه حتى رأته قادمًا بوجه غير الذي ذهب به، شُلّ تفكيرها وحركتها، فطن في لحظة أن موقعها لا يسمح لها بالخروج لابد أن يلقى الريسين عليها تحيته المميتة فما كان منه إلا أن هتف بها بصوت هادر:

-اكتمي أنفاسك

أخذت شهيق سطحي وكتمته وظلت تتساءل بيديها أن ماذا يحدث؟! جاوبها بإجابة غير متوقعه.. انقض عليها وأطبق شفتيه على شفتيها، لم يتمكن من تقبيلها فاضطر للصق ظهرها بالحائط وحبس جسدها بجسده، وبالقماشة المُبللة كتم أنفاس أنفها وبدأ يبث في فمها روح من روحه، يبث حياته في جوفها، نَفَس تعمد أن يخرج من عمق رئتيه أنهى به كل ما ادخره ليهبها إياه بقُبلة حياة كالتي وهبتها لابنه ويليام فيما سبق وكأن صنيعها يُرد إليها، وبسرعة أيقن أن المسافة لباب الخروج من المعمل أطول من زجاج النافذة بجانبهما والتي ترتفع لمتر واحد عن الأرض في الخارج حيث ردهة الطابق وفور ما لمح بعينيه آدم يأتي راكضًا صوب تلك النافذة وضع خطته ونفذها.. وبما تبقى لديه من قوة ظل كاتمًا بيمينه فمها حتى تحتفظ بما بثه بداخلها من هواء رئتيه النظيف وبذراعه اليسرى حملها ليلق بها موجهًا قدميها نحو الزجاج، صرخ رغمًا عنه وهو يلقي بها نحو الخطر، ولكنه أهون من غاز الموت المحقق وبالفعل ارتطما بالزجاج فتهشم محدثًا جلبة زادت الموقف رعبًا ولم يعي بحاله إلا أنه في آخر صرخته قال بصوت جهوري:

-آدم التقطها

وبعدها غلبته فطرته للتنفس وبعمق.. ومن الريسين

***

وقع سلاح ستيفن منه كما وقع فكه السفلي دهشة وشهق كل الحاضرين بهلع بالغ، أما تشارلي فأصبح كالتمثال المنحوت فحينما اقترب المترو ركضا الفتيان تجاهه وفجأة دفع أحدهما الآخر بقوة وهو يركض أمامه فأوقعه عمدًا أمام المترو فارتطم بزاويته لتنفصل رأسه على الفور في مشهد بغيض وتطير في الهواء حتى تقع على رصيف المحطة أمام أحد السيدات التي صرخت بهستيرية حتى فقدت الوعي وسقطت على الرأس! وظل جسد الفتى المقتول بالأسفل بجانب عجلات المترو الذي أكمل طريقه والذي يبدو أن أمر إيقافه وصل متأخرًا، ليس ما حدث هو الذي يجعل الذعر يتفشى وإنما كان الفتى الآخر قد قفز بجانب جسد رفيقه وانقض بيديه يدخلها مكان نزع الرأس ويجذب أشياء من داخل الجسد ويتناولها بسرعة وجنون، وهنا انتفض الجميع وتقيئ الكثير وركض البعض بلا هدف وتيقنت الشرطة أنهم أمام فئة لم يمر بها عصر، أشاح ستيفن بنظره جانبًا وأشار لفريقه أن يلقوا القبض على من انهمك في وليمته على القضبان، اقتربوا بحرص وتكنيك فمن يواجهون الآن لا تُتوقع تصرفاته، انقضت على ظهر الفتى العصا الكهربائية بعد أن نظر للجميع بشراسة ومنهم تشارلي الذي لاح لستيفن أنه سيقع في موضعه فاقد للوعى، وضع يده على كتفه فنطق بدون أن يُبعد عينيه عن الجسد المأكول:

-قل لي أن هذا ليس حقيقيًا، قل لي أن هذا ليس حقيقيًا ستيفن

-تماسك تشارلي أرجوك

وصَمَتَا.. فقط كل ما كان يُستكمل بداخل ذهنيهما هو أن يتمكنا من التعامل مع هذا الفتى، هل يستمكنوا من استجوابه هل حظوا بمفتاح كل شيء بأن حظوا عليه؟!

***

اختطاف

فور ما خرجت إميلي من العناية المركزة وأحيطت بكل الأحبة حولها عدا أهمهم التي سألت عنه بلهفة فجاوبها أبيها:

-بالطبع لقد حان الوقت لزيارة هذا البطل، علهم سمحوا بها الآن فلم يتمكن أحد من زيارته الأيام السابقة.

-كيف تمنع الجميع من زيارة دكتور ألبرت!

قالها البروفيسور بشيء من الغضب، حاول الموظف الرد عليه فخرج صوته متلعثمًا زائغ العينين أمام تعجبه

-ما الذي يحدث هنا!

وفي آخر جملته كان قد أتى المدير بوجه جاد ولهجة احترام يقول:

-مرحبا بروفيسور هل تسمح بالمجيء إلى مكتبي لأوضح لك بعض الأمور؟.

عبس وهو يرافق المدير إلى أن وصلا لمكتب الأخير الذي تنحنح:

-فور ما بُلّغنا بالحادث خرجت خمس سيارات للإسعاف لتأخذ المصابين وكانوا ابنة سيادتكم وطالبان وعامل ودكتور

ألبرت، للأسف مات طالب والعامل وجاءت السيارات وهذه لحظة وصولهم، ثم قام بتشغيل شاشة الحاسوب أمامه وهو يعرض ما سجلته كاميرات المراقبة حين وصول السيارات إلى المشفى:

-كما ترى سيدي لحظة وصولهم وهم يُخرجون ابنتك والآخرون و..، قاطعه البروفيسور قائلًا:

-ولكنهم أربعة سيارات وليسوا خمسة

-نعم وهذا ما كنت سأقوله لسيادتكم، أربعة فقط

-إذن لابد من متابعة خط سيرهم منذ البداية

-نعم وهذا هو إثبات خروج خمس سيارات وليس أربع حسب كاميرات الكلية

-ولم تجدوا السيارة؟!!

-ولا دكتور ألبرت يا بروفيسور

-كـــ كيف ما معنى هذا؟!

-الأمر أثار حالة من التوتر وإجراءات ومتابعة وكنا في اضطرار لسرية الأمر مع الشرطة ولكن لم نتوصل إلا لشيء واحد

نظر له بكل جسده ينتظر تفسيرًا إلا أن المدير استطرد: تم إيجاد السيارة بالفعل، ولكننا وجدناها.. صمت لحظة حتى استحثه على

التكملة: وجدناها فارغة

-غير معقول، وأين الممرضين المرافقين أيضا؟

فرك المدير عينيه بإبهامه وسبابته وإرهاقه باد على ملامحه: وجدناهما على جانب الطريق، وتقرير الشرطة أن هناك من كان كامن في السيارة أو ركبها بطريقة ما وتهجم على السائق والممرض وانطلق هو بالسيارة، واضح أن المُختَطِف لم يكن يعمل عبثًا، بل تعمد دخول السيارة في مكان ليس به كاميرات مراقبة وأيضًا حينما ألقى بالسائق والممرض

-ولماذا يختطفون ألبرت، أنا أعرفه جيدًا ليس له أعداء

قام المدير واقفًا ليواجه البروفيسور وهو ينظر إلى عينيه مباشرة يقول بأسف:

-نحن جميعًا لدينا فضول وشعور بضرورة حل اللغز إلا أنه كما ترى كل من أتى من الحادث موتى ماعدا ابنة سيادتك بناءً على تضحية دكتور ألبرت وطالب آخر لم تكن إصابته من الغاز بل كان أقرب المتواجدين من باب المعمل فوقع على الدرج وانكسرت ساقه، أما غير ذلك فمات ودكتور ألبرت وضعه كان أسوأهم، فسواء وجدناه أم لم نجده فبنسبة تتخطى100 ٪ هو ميت

***

غموض

وقف تشارلي أمام نافذة مكتبه في صمت ثقيل وستيفن خلفه يستطرد:

-دعني أنا أتولى التحقيق معه فلتنأى بنفسك عن ملاقاته ويجبذا لو تأخذ إجازة حتى تستطيع تولي القضية بذهن صافى

نظر له بوجه ذابل فاستكمل بشيء من الشفقة: لقد كنت دومًا متصدرًا فلترتاح هذه المرة لتستعد صلابتك

أومأ له باستسلام أن نعم أنت محق

وبمجرد ما أن دلف ستيفن إلى حجرة احتجاز فتى المترو حتى أصدر الأخير صوتًا مقززًا استهزاءً، وقف ينظر للحوائط التي كتب أشياء مبهمة عليها، قال بصوت أجش وهو ينظر بحذر للمكتوب وبنظرة متفحصة للكاتب:

-بماذا كتبت يا هذا؟ قالها وهو يتأكد من القيود المحكمة لأطرافه فجاوبه بصفاقه:

-بـــ...

ابتسم ستيفن ليخفي غيظه وقد علم أنه أمام عقلية مريضة ولاحظ دماءً على لسان الفتى وقد علم الشيء الحقيقي الذي كتب به رسوماته الغامضة، أتراه قضم لحم فمه ليخرج دمًا كالحبر! دلف إلى باطن الأمر مباشرة فلا مجال مع شخصية كهذه للَّوع أو مماطلة:

-ماذا تريدون؟

-حق وجود بالقانون وحرية كأي مواطن إنجليزي

لم يكن متوقع سرعة الرد وجديته! لا يتناسبان مع مصدرهما

-تريدون دعمًا قانونيًا لأكل لحومنا وحرية في فعل ذلك وقتما وكيفما شئتم؟!!

-لا بالطبع ولكن تعترفوا بنا وبحقنا ونحن نملك دستورًا كاملًا لتنظيم الأمر لنحيا كما نريد كما تحيون أنتم وسنظل نؤرقكم حتى تستسلمون وتجلسون معنا على مائدة المفاوضات لنجعل انجلترا موطن للحريات بحق

قهقه ستيفن قهقهة تكبت حنقًا وعجبًا وقال بسخرية لاذعة:

-ويهدي الجار إلى جاره إصبعه ليأكله ترحابًا به وربما تهدي المرأة رضيعها لصديقتها لتثبت لها حبها وإخلاصها أليس كذلك!

وفجأة انقلب لوجه ناري يهدر في وجه الفتى: أي هراء تتفوه به

يا كريه فلتعترف على الفور بمقركم ومن يرأسكم حتى..

رجع إلى هدوئه في لحظة وابتسم ببرود واستطرد:

-حتى نتناقش معه بشأن الدستور... كما تعلم هاه

-فلتأكل نفسك غيظًا أيها الضابط حتى نصبح في الوجبة سواء

وضحك ضحكة متقطعة مستفزة وستيفن يخرج من الغرفة بخطوات سريعة، تتحدث إليه أفكاره: فشلت في التحقيق، أنت حتى لم تستجوبه بشأن الأعضاء المقطعة، ماذا سأقول لتشارلي، ظل يتساءل بلا أجوبة وبلا أي أمل

***

صاحب المعطف

بعد مرور أشهر وقد عولجت إميلي ورجعت إلى بيتها إلا أن قلبها مازال مكسورًا لفقدان قطعة منه، الغموض حينما يقترن مع الحزن يصبح كابوسًا، وفي خلال محاولاتها لغلق عينيها كانت عيون أخرى مفتوحة في ظلام الغرفة تنتظر لحظة الانقضاض! كان صاحبها منذ دقائق يسير في المطر بمعطفه الجلدي الطويل ليس له هدف سوى بيتها الذي استطاع دخوله بحنكة يُقطّر معطفه على بساطها الكناري يقترب بخطوات ثابتة حتى شعرت بحركة فتحت عينيها منتفضة صارخة حتى قطع الرجل المسافة بينهما بخطوة وكتم صوتها بيديه، ارتعبت وثبتت عينيها على وجهه بهلع حتى تموج بالدهشة ومنها إلى الفرحة القوية التي أزالت كل ما سبق وأزالت أيضا يديه من فوق فمها، فلقد راقب شعورها من نافذة عينيها حتى أطلقها ووقف أمامها في صمت عكسها هي التي قامت على الفور تبكي تنطق اسمه متقطعًا بين بكائها: أ ألبـ ألبرت هذا غير معقول، تقطر الماء من عينيها كقطرات معطفه الجلدي تقول بصوت شديد التهدج: كيف حدث؟ أين كنت يا حبيبي؟ وقطعت سيل الأسئلة لرغبة عارمة في ضمه حتى استوقفتها ملاحظة بسيطة،

ولكنها غريبة، ليس لأنه لم يتكلم حتى الآن ولا كيف دخل إلى هنا ولماذا الآن وهكذا، ولكن أين قطرات المطر التي كانت تُبلل معطفه الآن؟!، فحينما اقتربت لتضمه وجدت المعطف جاف تمامًا، لم يكن بالشيء الهام، ولكنه لافت للانتباه، توقفت في منتصف خطواتها إليه وكتمت البكاء بل أنهته وصدرت جل تركيزها على وجهه لتجده جامدًا لا يحمل تعبيرًا همست بقلق وهي ترجع بخطواتها رويدًا.. ألبرت!! لم يجاوبها بل قام بفك حزام معطفه وهي تنظر بتعجب حذر، أيكون لقاءهما هكذا بعد كل هذا الغياب والاشتياق والغموض!! وفي أثناء اختلاط التعجب بالضيق انفجر الذهول بينهما ليبيدهما بالكامل ويستحوذ عليها، ذهلت ليس فقط لأنه عاري تمامًا ولكن لأنه ليس طبيعيًا، جسد ناقص يؤكد أنه ليس إنسان بطن مستوية لا أثر لربطة الحبل السري فيها، ولا شيء بين القدمين كأنه تمثال عرض ولكنه يتحرك وينظر إليها، لم تصرخ وكأن حنجرتها شلت إلا من بعض الصرخات الضعيفة المتقطعة التي لا تتعدى أذنيها، فارغة فاهها تضع يديها المرتعشة عليه وتشير بيديها الأخرى إليه أما هو فتقدم منها فرجعت برعب مهول وآخر ما سمعته قبل أن تقع فاقدة للوعى كان اسمها يقوله بصوت منخفض.. إميلي.

-أبي لن تصدق الكابوس الذي رأيته مروع أبي مروع

-لم يكن كابوسًا إميلي أفيقي

وبعد أن كانت عيناها تفتح ببطء فُتحت على مصرعيها تحدق في وجهه الجامد وقد ارتدى معطفه تقول بصوت مرتجف قل لي أن هذا ليس حقيقيًا أيما تكن فلتقل هذا وحسب. وعت إميلي أن كل ما رأته حقيقة وليس كابوسًا وأنه هنا يقف أمامها كما كان فقال بصوت رتيب:

-لقد صُدمت قبلك بما حدث لي، أو هكذا بدا، وددت لو أن أطمئنك لكنني لا أملك لنفسي شيئًا، أو لم أعد أملك نفسي من الأساس، لقد انتقلت روحي إلى العالم الآخر أنا الآن ميت، وما ترينه الآن هو ظاهريًا جسدي.

فقدت الاستطاعة على النطق أما هو فجذب كرسي وجلس وأشار إليها بالجلوس فأطاعته بلا إرادة ومسحت الحائط بظهرها وهي تجلس أرضًا ببطء، قرّب كرسيه لتراه بوضوح وضوء مصباح النوم يضئ نصف وجهه بنوره الأصفر الهادئ

-أتيت إليكِ لتساعديني ولكي تساعديني لابد أن تعلمي ما حدث، آخر ما أتذكره وأنا مازلت بشرًا هو شعوري بخلو رئتي من الهواء بشكل مؤلم قاومت وكسرت الزجاج وقذفت بكِ نحو آدم وحينها لم أشعر بشيء لا أدرى إن كنت وُفقت في إيصالك له أم لا، غبت في ظلام غريب، وفجأة فتحت عيني لأجدني في غرفة كغرف

المشفى، ظننت أننا جميعًا عولجنا، قمت جالسًا بسرعة تعجبت لها لا أشعر بأي ألم أو وخم النوم والاستلقاء على فراش المرض، فتحت باب الغرفة فوجدت ردهة طويلة ناديت. لا أحد يجيب! تعجبت كيف يتركون المرضى هكذا ورجعت إلى غرفتي لأجري اتصالًا بالاستعلامات، فلم أجد أي هاتف! لم أجد سوى أن أنتظر أي ممرض يمر عليّ حتى أوبخه، وإلى حين حدوث ذلك أليس يفترض بي أن أتناول أي طعام! لا أشعر بالجوع البتة، ولكن هذا هو الشيء الطبيعي أن آكل، فتحت الثلاجة الصغيرة تناولت تفاحة وقضمتها ودهشت.. فقد قضمت بشكل حاد وسريع، قلقت خاصة حينما بلعت ما قضمته دون مضغ! خطفت زجاجة الماء كتصرف منطقي ثم وبلا أي مقدمات تقيأت الماء ومعه قطعة التفاحة بلا أي شعور قيئ أو رغبة فيه، درت حول نفسي أبحث عن مرآة هل أعاني من شيء؟؟، وفور ما وقفت أمام المرآة الملصقة في الخزانة ذات الباب الواحد حتى ثبتُّ كالتمثال.. أكنت عاري طوال الوقت!، لم أكن رياضي وذو جسد قوي هكذا، ثم رجعت إلى الخلف بغتة مصدومًا، ما هذا! وضعت يدي على جسدي أتحسسه أبحث عما فُقد منه، ثم أنني لا أشعر بهلع لماذا شعوري فيه نقص كجسدي! لست مصدومًا كما يجب لست خائفًا، توقعت أنني ألهث من فرط توتري إلا إنني.. آه لا.. أنا لا أتنفس!! كيف يا للهول ترنحت.. كيف أتحرك وأنا

لا أتنفس كيف أكون على قيد الحياة مع كل هذا، أغمضت عيني وضعت يدي على صدري لأشعر به.. أين قلبي! لا شيء لا شيء البتة

انطلقت لأركض فلم أجد للطابق مخارج وبـدأت أصيح وأنادي حتى سمعت صوتًا فالتفت فإذا بها شاشة عرض كبيرة مثبته على الحائط خلفي، صوت شارح كذلك الذي يكون في الأفلام التسجيلية الوثائقية يقول:

نعم هذه بداية طفرة جديدة في عالم اللا حدود

ثم أظهرت الشاشة جسد ممدد على فراش طبي لم يخف عليّ وجهه وبالطبع كان أنا، ومن حولي رجال بملابس طبية وأقنعة بدأوا في شقي طوليًا وأخرجوا من جَوفي كبدي الكليتان قلبي والرئتان

بوجوم وضعت يدي على قلبي بما يشبه الحسرة وكأنهم وجدوا مشاعري مجسدة حينها فاقتطعوا أغلبها وتركوا لي القليل، الفيلم مصنوع بحرفية تصوير شديد الدقة تم تسريعه يظهر أسفل الشاشة مدته الأصلية ساعات يصل مجموعها لشهور، لقد تم العبث بي شهور! رأيتهم يدخلون عليّ ويخرجون يذهبون للراحة ويعودون وأنا جسد مقطع منزوع الجوف تحت الكاميرا وحيد، جسد أجوف انتُزع هيكلي العظمي وتُرِكت جلدًا لأصبح كالرداء ينبعج وجهي

لعدم وجود عظام مفتوح على مصراعيَّ بشكل مروع لو كنت طبيعيا لصرت مجذوبا و.. أين.. أين روحي إذن!! ااااه لا لقد مت، لا يُفعل هذا بحي إلا وحتمًا قد مات، ميت أمامي وهو أنا!

حقنوا جلدي بأشياء ودهنوه بأشياء أخرى وبعد تسريع كبير في الفيلم دخلوا بهيكل عظمي صنع خصيصًا لي لا ينكسر! مثبتة فيه عيناي لتدخل في محجريها في رداء جسدي الذي حافظ على رونقه مما نُقع فيه، أكره ما أراه ولا أستطيع إلا أن أراه، تلك الغشاوة الكبيرة على إحساسي تكبلني عن البكاء وتحطيم الشاشة

وضعوا كيس من مادة غريبة بداخل قفصي الصدري بدلًا من الرئة.. لعله هو الذي يستقبل أي طعام أتناوله ويطرده خارج الجسم، ولم يضعوا بداخلي أي أعضاء فقط صفائح إلكترونية ومستشعرات وشبكة مستقبلات وتعقيدات رهيبة، كان بعض الأطباء يتساقطون بجانبي من الإرهاق ويُحملون للخارج ويعودون في يوم آخر، أراني في أبهى حالاتي جسد أكثر جمالًا وقوة وبشرة نضرة، وثبتت الكاميرا عليّ وكأننا ننظر لبعضنا نفس الشخص يرى في نفسه المجهول، هل أصبحت روبوت!!

-بل روبوت عضوي

التفت بقوة حولي فور ما سمعت هذه الجملة بصوت معدني،

صوت معدل ليبدو هكذا وتساءلت بداخلي فجاءتني الإجابة منه:

-هذا لأني لم أجعلك جهاز عادي، بل مازال بداخلك جزء من جسدك الأصلي

تيقنت أنه يعلم ما يدور في عقلي الجديد، جاوب على تفكيري وقال: نعم ويظهر أمامي على شاشتي كل ما يجول بخاطرك الآن

وظل يجاوبني بدون ما أسأل أو أتحدث بصوتي، شعرت بألفة له وبالانتماء أيضًا، ولكنه قال: أنا أحب أن أتعامل مع ألبرت مباشرة فدعني أسمح لما تبقى من عقلك البشري بمشاركتنا اللقاء

لم أفهم، ولكن لم تمض دقيقة إلا وقد شعرت بشعور غريب، وفكرة أني أشعر هي في حد ذاتها غريبة أشعر بها يشبه حالتي البشرية.. كيف؟؟ نطقت بها مندهشًا فجاوبني الصوت المعدني:

-ألبرت أنت واحد من أهم ما صنعته وأغرب ما صُنع عبر التاريخ، أنت الآن تتحدث إلى مخترعك «الصانع» لقد أعدتك للحياة ولكن ليس بالمفهوم المألوف ولكن حينما قررت روحك الرحيل وأبت البقاء استبدلناها بروح مشابهة، أخرى إلكترونية، كانت دومًا الروح وكأنها متمردة متغطرسة إذا هلك شيء من الجسد استطعنا تعويضه ولكنها هي الكنز الذي إن مضى مضى معه الإنسان وإن كان في أجود حال وأقوى جسد، ولهذا جاء عصر كسر أنفها،

فإن أرادت الرحيل فلا بأس سنبقى أحياء، لقد مررت أنت بحادث وفور ما حدث كنت على علم به فأذرعي ممتدة لأمد العالم بالمزيد، انتشلتك بحيلة بسيطة وكنت قد فارقت الحياة فأخذتك وأنت ميت ولم أترك جسدك لهم كانوا سيغلفون هذا الكنز الثمين في حُلة حمقاء ويضعونك في صندوقا ويدسونك في التراب، استخسرتك في الدود والتقطتك من البلاء والفناء وفعلنا ما تم دراسته في نحو ثلاثة عقود وتجربته على بعض الحيوانات وكنت أنت صاحب الفرصة الأولى من البشر، تم انتزاع مخك واستئصال أجزاء منه بمنتهى الدقة، خلايا مسئولة عن الذاكرة والإدراك هي التي أبقينا عليها في دماغك ولذلك أنت يهيئ لك أنك تشعر ولكنك لست كذلك وإنما خلايا الذاكرة عندك تبث بإشارات لأن من المفترض في هذا الموقف أن تكون حزينًا أو سعيدًا أو غاضبًا، تحتفظ أيضًا خلاياك الأصلية بأكثر من ٨٢ ٪ من ذكرياتك الماضية وزرع خلاياك البشرية وإبقاءها فيك وإيصالها بأحدث الموصلات التقنية لتتناغم مع باقي الجسد ليس هو فقط ما يجعلك روبوتًا غير عادي بل روبوت عضوي، لقد عملنا بسرعة لنحافظ على جلدك من التغير وأدخلنا في نسيجه مواد حافظة ومواد من بعض الحيوانات ممزوجة بكيميائيات خاصة ليصبح جلدك نضر كالحي، يكفي أن تفكر في شيء ما ليفتح أمام عينك ملفه وكل ما يخصه من معلومات كشاشة عرض هوائية لا يراها سواك،

بإمكانك الاطلاع على مشروعك وكيف صُنعت ودليل الاستخدام في أي وقت شئت، أرأيت.. أنت الآن تشعر بالدهشة وهذا بفعل خلاياك البشرية أينعم ليس بنفس كفاءة الشعور البشري الحقيقي، ولكن هذا أقصى ما استطعنا الوصول إليه.

تملك ألبرت شعور بالخضوع.. شاكر لك سيدي الصانع رد الحياة إليّ

-والآن انجلترا تحتاجك، أنت الآن آلة تحقيق وتتبع وقتل وعلى طراز غير مسبوق، ملف سيفتح أمام عينيك الآن فيه كل التفاصيل

وبالفعل فُتحت شاشة أمام عينا ألبرت الجديدة تتسع في رقعة الهواء أمامه فيها صور المتهمين وحادث المترو، ورغم أنه الآن عبارة عن جهاز إلا أن الشعور المُخزّن في خلاياه البشرية جعلته يتحمس بغضب حتى نطق على إثر شعوره الصانع وقال: ألبرت.. انطلق.

-ترك لي الصانع حرية التصرف كأنني إنسان عادي له إرادته الخاصة، أذهب حيثما أريد ووقتما أرغب، ففضلت المرور عليك إميلي جئت لأبث إليك خبر عودتي للحياة.

أنهى سرد ما حدث ولم يذكر لها شيئا عن تكليفه بالقضية.

-إذن على أي أساس أعاملك... ألبرت؟. قال بصوت مطمئن:

-أعلم أن الأمر شديد عليك وسامحيني على عدم تمهيد ظهوري أمامك فأنا وإن كان بداخلي جزء بشري فهو أقل من أن يسمح لي بانتقاء التصرف الذي يتناسب مع رقتكِ، تعاملي معي بثقة هذا ما أضمنه لكِ

قال لها كلماته وهي ترى عيونه المطمئنة تشعر بقربه كما السابق، وفي نفس الوقت وهو ينظر لعينيها لم يكن ما يشاهده كالذي تشاهده بل وبشكل تلقائي يظهر أمامه شاشة هوائية تُرص بين وجهيهما كل ما يخصها، وهذا ما يحدث أوتوماتيكيا حينما يواجه الروبوت العضوي أي كائن حي، يظهر أمامه المعلومات التي تخص الكائن بداية من درجة حرارته كمسح شامل لجسده وحتى مسح لحركة العينين وضربات القلب وتردد الأنفاس وإفراز العرق ومنها يُنشئ له ملف بداخل ذاكرته الإلكترونية ليتعامل معه بحسبه، وقد كان أول ملف عن حبيبته السابقة التي انهارت في البكاء من نظرات عينيه التي تخترقها، تظهر كنظرات اهتمام وبالنسبة له تسجيل إحداثيات، لم تستطع كبت كل هذا التضارب في المشاعر، مد يديه بحرص حتى لا يفزعها يحاول انتقاء تصرفاته أفضل مما سبق ولمس بأنامله وجنتها شعرت بقشعريرة شديدة ارتج جسدها فهمس لها.. إهدئي حبيبتي أرجوك اعتبريني أنني هو.. بل أنا حقًّا هو، أنا حبيبك، بل زوجك ألا تتذكرين؟ لقد مر على حفل زواجنا الكثير كنا لنصبح زوجين الآن.

انهارت تمامًا فاحتضن وجهها بيده ومسح دمعاتها الغزيرة، شعرت بدفء ليديه وكأنه حي يجري الدم في عروقه ولم تعلم أن لهذا الكيان جهاز يوائم درجة حرارته كالبشر، بل ويزيد منها ليجفف معطفه إن أراد! ولم تعلم أن هناك مستشعرات تحت جلده وأنامله التي تمسح دموعها تحللها، يظهر أمامه شاشة ببياناتها وقياس الصدق فيها! لم تعلم أن شعوره الذي يبثه لها الآن مجرد معلومة مخزنة يتبعها كإرشادات، لقد كانت هذه قريبة من قلب قد هلك..

-لا أعلم كيف أتعامل معك أنا أخشى على نفسي ألبرت أخشى على نفسي

-انظري إليّ إميلي انظري لي... أنا ألبرت وحسب.

مسح عينيها بلطف، معد هو الآن لمعرفة خفايا الجسد الإنساني وكيف يجعله ينام وبالفعل ظل بحركات متكررة يمسح على مناطق معينة في الرأس والرقبة حتى نامت ولا تدري كيف، ولكنه تعمد ذلك ليخرج كيفما دخل وقد حوى جهازه الإلكتروني بداخله ملفًا شديد الخصوصية.

***

مُحقق من طراز فريد

كيف سأشرح لتشارلي الأمر.. روبوت.. الصانع سيرسل إلينا روبوت! ما هذا الهراء، أنهى همهمته وهو يطرق الباب و..

-تعالى ستيفن ما الجديد؟ قالها تشارلي وهو منهمك في عمله

-الصانع سيرسل إلينا...

-ماذا؟ بعوض كالمرة السابقة؟

-لا بل محقق

التف بكرسيه ليواجه ستيفن ويقول متهكمًا:

-لعلنا نبدو في نظره أطفال يلهون في الروضة!

-كلام نائبه مقتضب يصف ما سيرسله أنه محقق و...

-وآلي أليس كذلك! ، ثم استطرد ضاحكًا... آلي كبعوضه الصغير

قال له ستيفن بجدية:

-نعم صحيح

بتر تشارلي ضحكته ونظر بتساؤل

-سيرسل إلينا روبوت ليحقق مع المتهم.

قام واقفًا بحدة وقد ارتفع صوته: ما هذا السفه هذا تحقير من شأننا نحن لدينا أفضل المحققين، استخراج المعلومات من الفتى مسألة وقت، ولكننا طلبنا مساعدته ليرسل أداة ما نضغط بها على الفتى ليعترف أو شيء كهذا أما أنه يرسل دعمًا هزليًّا هذا غير مقبول، ويا تُرى هل سيرسله لنا في طرد سري وصندوق من الكارتون مصحوب بدليل التركيب والاستخدام!

-بل عبر الباب مفتش تشارلي... عبر الباب وحسب

كان الصوت قوي وهادئ ورغم ذلك انتفضا بحركة عنيفة ينظران لمصدره الذي لم يكن سوى ألبرت واقف عند الباب بهيئته القوية يرتدي بذلة سوداء كلون شعره الحالك وتنير عينيه أراد أم لم يرد بلونها الفيروزي النادر وملامحه الجادة التي لا تقبل العبث، قال تشارلي بصوت هادر: من أنت؟ وكيف تقتحم مكتبي بلا إذن

تقدم نحوه بثقة يقول: أنا المحقق المرسل من الصانع أيها المفتش

ستيفن تحول استنكاره السابق لانبهار وتشارلي لم ينتبه لفكه المفتوح وطمست هيبة ألبرت على غضبه وسخريته، فقط خرج من خلف مكتبه بخطوات حريصة وذهب ليلتف حوله عابسًا باهتمام:

- هل تعني أنك تحمل الروبوت الذي أرسله الصانع معك؟،

ثم فجأة وعى أنه ربما فخ وأشار لستيفن آمرًا: فتشه على الفور

قال الأمر ليشتت ألبرت فينظر إلى ستيفن وحينها ينقض عليه يكبله بسهولة، وتلقائيًا انقض تشارلي عليه متوقعًا التفاته ففوجئ بثباته التام لم يتحرك قيد أنملة ولم يستطع هو التراجع بعد انقضاضه فارتطم به وهو كالتمثال فارتد متعثرًا ونظر إليه بتساؤل شديد وقال: ما أنت؟! كأنني ارتطمت بصخرة

-أنا الآلي الذي رشحه الصانع للقضية وعلمت أنكم في عجلة من أمركم ولا أرى فيما تفعلونه شيئًا يدل على ذلك، إن كنتم ستضيعون مزيدًا من الوقت فلا رغبة لي مثلكم

ازدرد تشارلي لعابه وهو ينظر في حيرة لستيفن الذي لم يخرج من دهشته حتى الآن يتأمل هذا المبعوث الغريب، ثم قال حائرًا وكأنه بالفعل نسى القضية:

-كيف تكون روبوت! ، أنت بشر متكامل الهيئة. ثم اقترب بحرص يمسح على جلد يديه وبيده الأخرى يمسح على شعره ووجنتيه.. شيء مذهل أنت مثلنا لا يمكن أن أصدق ما تقول. سأم ألبرت ما يحدث وكره كونه يُستكشف فأراد أن يُبعده وفي نفس الوقت يثبت له أنه ليس بشرًا، تمادى في فحصه:

أتريد أن تقنعني بأن هذه الدقة لإنسان آلي، أنظر ستيفن إلى عنقه

هل ترى انحناءة الـ.. آه ما هذا ممـــ ما الذي يحدث أتركني آه ساخن للغاية اتركني يا هذا

فعّل ألبرت نظام ضبط الحرارة لديه لأقصى ما يمكنه فظلت حرارة سطح جلده ترتفع وأمسك بمعصمي تشارلي بقبضتيه التي يستحيل فكهما من بشري والحرارة ترتفع وتشارلي يصيح وتتسع عيناه فزعًا

-دعني... افتح قبضتك... اتركني

ستيفن يحوم حولهما كنحلة طنانة يصدر صوت همهمة حائرة يمد يديه يريد إنقاذ صاحبه وخائف من ألبرت، وفي اللحظة المناسبة أفلت يديه وهتف تشارلي وهو ينظر لالتهابهما:

-يستحيل أن تصل درجة حرارة إنسان لهذا. علق ألبرت ببساطة وهو يمسك يديه وقد سرى خدر غريب فيهما وبرودة طفيفة تهدئ من أثر الحرارة:

-روبوت عضوي أيها المفتش

واتسعت عيناهما بشدة، ليس لأنه عالج يديه وأذهب ألمهما فقط، ولكن لأنهما أمام اختراع مهيب لم يسبق لأحد التعامل معه أو.. منافسته

-أيها الوغد القذر كفى استفراغًا سأجعلك تأكل قيئك

قال الحارس كلماته بتقزز وهو ينظر لفتى المترو الذي يقاوم توعكه ويقول بسخرية لاذعة: طالما أرى وجوهكم سأظل ألقي بما في جوفي في سجنكم العفن

-ماذا تطعموهم في السجن؟

ألقى السؤال صوت صارم من خلفهما فتذكر الحارس إعلامه بمجيئ محقق جديد فألقى تحيته باحترام ذو عصبية مكبوتة وانصرف، أما الشاب فولى ألبرت ظهره. حلل المكان وكل شيء رُصّ أمام عينيه بدقة وبقي تحليل الشاب، يحتاج أن يقترب منه يحتاج أن يجعله يعرق بل ويحتاج للعابه وربما لقيئه الذي لم يُنظف بعد، ابتسم بخبث ورسم على وجهه تعبيرًا آخر ليواجهه

-هل أصبحت بخير الآن؟

-وبماذا يفيدك أن أكون بخير

-تريد أن تخرج من هنا أليس كذلك؟

التف الفتى وعينيه تحمل مقتًا كبيرًا وقال بعصبيه: هل تظنني غبي، تريدون إما أن تتعقبوني أو أنك تهزأ بي.

-لماذا لا تأكل طعام السجن؟

ضيق عينيه وقال بشك: وكيف أعيش إن لم أتناوله؟

اقترب من عيونه وقد تراجع لا إراديًّا: أنت لا تأكل ما يُقدم لك منذ يومين وثلاث ساعات

عبس الفتى متفكرًا في المدة المحددة التي ذكرها المحقق الغريب وما لبث أن تلعثم قليلا: كيف عرفت؟

-أنا أعلم جيدًا ماذا أكلت وأين ذهب طعام السجن. ضحك الفتى ضحكة قصيرة بعصبية:

-حسنًا وأنا أعلم أنك تدعى معرفة كل شيء، أحسنوا هذه المرة في اختيار المحقق ولكنكم لن تتمكنوا مني اقتلوني إن شئتم، أنا أعلم جيًدا أين كاميرات المراقبة وأستطيع التخفي منها وفعل ما أريد. كان ألبرت على اطلاع بذلك وأنه بارع وكثيرًا ما يجدونه يفعل أشياء ولا تُلتقط

-لماذا أكلت من صديقك؟ أم أن الوحشية تفقدكم المروءة.

قال بغل: ولولا يداي المقيدتان لكنت التهمت من وجهك الجميل قضمه تشوهه

ومع نهاية حروفه امتدت يد ألبرت ليمسك بالقيود ويثنيها وكأنها عجين مرن في يديه حتى خارت قواها وتحررت أيدي الفتى

الذي فرغ فاه وارتعبت عيناه وتحول كل شيء فيه إلى الذهول، وبدلًا من أن يبتعد عنه انقض عليه لينفذ وعيده ويأكل من وجهه، وفور ما انقض لم يتحرك ألبرت، ولكن هو الذي ارتجف وارتد مصعوقًا للخلف، شعر بكهرباء تسري في جسده ردته هي والخوف معًا لبعيد، عبس بشدة وظن أنه رجل مدرب جيدًا، تسارعت أنفاسه وخرج صوته مضطربًا: أين تخبئ الصاعق الكهربائي؟ حقق ألبرت مراده والتقطت وجنته مسحه من لعاب الفتى وهو يحاول قضمه ونجح في إخراج عرق منه حيث أوصله للتوتر المُفرز له واقترب ليأخذ عينة والآخر يتراجع فأحكم قبضته على ذراعه من أسفل إبطه ليتمكن من تحليل العرق وتأكدت معلوماته وعلم جزءً من الحقيقة وقال بصرامة وثقة:

-أنا أعلم أنك ومن تنتمي إليهم تنتهجون اسلوب حياة شاذ تأكلون ما لا يؤكل كما فعلت أنت خلال اليومين السابقين أطعمت الفأر طعامك واستدرجته حتى أكلته، انظر لحالك لقد أمرضك، تحاول ممارسة هوايتك أم تميت نفسك بالبطيء!

تعجب ولم يبد أي مقاومة أو تعليق حتى استطرد ألبرت بعد أن تركه: لا حاجة لي لتفسير حملاتكم على الأبرياء ولن اسألك عن شيء سوى أين مقركم ومن يقودكم؟

-وإن لم أفعل ستقتلونني؟، لا بأس افعلوا سأموت على أي حال لن أتفوه بأي شيء.

ابتسم مما أثار حفيظة الفتى وأربكه أنه التف حوله ببطء يقرب فمه من أذنيه لا يشعر بأنفاسه وببطء مستفز يخيفه: أنت لا تخشى الموت حسنًا ما الذي من الممكن أن تخشاه غير الذي تفعله؟ ما رأيك في مصير مشابه لما فعلته بصديقك، ولكن بشكل درامي أكثر، أنت ألقيته فمات من فوره ولم يشعر بما لحق ذلك، أنا سأجعل لحمك يؤكل وأنت حي تشاهد وتشعر وربما أتركك حيا بعدها فلن أنهي هذه الذكريات الجميلة فور ما حدثت أليس كذلك.

صاح في وجهه: أنت فاشل.. جميعكم فاشلون، أنا أعلم جيدًا أنه لا جرأة لدى أي أحد منكم للعق جسدي مطهوًا فضلًا عن قضمه نيئ وأنا حي، أنا أكثركم قوة وجرأة فلتمكني من نفسك أيها الجبان. أضفى عليه صياحه مزيدًا من الجرأة والعزم يتقدم نحو ألبرت الذي ابتعد: لا تصعقني بسلاحك الخفي كما فعلت منذ قليل، أنا الذي سؤريك كيف تأكل بشرًا حيًّا. ابتعد ألبرت ليس ريبة منه، ولكن ليصل إلى القيئ الملقى على الأرض وبصوت رخيم بث الخوف في الفتى: هل تثق في عدم قدرتي على جعلك مشهيات لي؟

قالها وهو يمسح القيئ بمقدمه حذائه ثم خلعه ولعق القيئ بلا

تردد وبملامح تعمدها متلذذة، فُجع الفتى فلقد وجد من هو أبرع في هوايته الشاذة يتلذذ بقيء بشري لطعام مهضوم من فأر والأدهى من ذلك أنه بالفعل يستطيع أن ينفذ وعيده، ارتعشت أطرافه والتصق بالحائط وظهر منه الاستسلام المُخزي.

ألقى ألبرت الحذاء بعنف واقترب مسرعًا منه يقول بنهم:

-لا تقلق لن أتناول منك إلا ما قد تستطيع العيش بدونه، مع كل دقيقة تتأخر فيها عن إخباري بالمعلومات أكون قد التهمت منك شيئًا، بماذا أبدأ في رأيك؟ أذن من أذنيك أم تراني أفكر في شيء آخر. أنهى جملته وهو يتأمل جسد الفتى المرتعب من فوقه لأسفله، ركض كالمجنون تتلقاه حائط لتقذفه للأخرى وبسرعة خاطفة مثيرة للعجب استطاع ألبرت أن يقطع أكثر من نصف الغرفة ويلتقطه من جنونه ويصفعه على وجهه بعنف ويمسك رأسه بقوة حتى كادت عيناه تقفز من محجريهما وقال وهو ينظر له بشراهة: أم ترانا نبدأ بشيء يبدو لزجا كبيضة لم يتم نضجها وتنظر إليّ بفزع

-لا لاااا عيني ابتعد عن عيني... ادنبرة... «قلعة ادنبرة» هناك كل شيء، فقط اذهب عني. ظل يردد بهستيرية باكية، لم يكن ما أفزعه ما تناوله ألبرت، ولكنه علم أنه أمام شخص أكثر قوة ولديه الاستطاعة لفعل ما هدده به، لم يلبث ألبرت في الغرفة إلا بمقدار

نظرة متفحصة أخيرة وغادر..

ورغم متابعة تشارلي لما حدث من خلال كاميرا المراقبة إلا أن ألبرت قبل أن يرحل أرسل له تسجيله الخاص فانقض على الملف يفتحه فإذا بتصوير جودته عالية يشمل كل الزوايا، بل ويقرب الصورة عند اللحظات التي قد يحتاج أن يقربها المحقق أثناء مراجعة التحقيق بشكل مذهل، لم يفعل شيء تشارلي إلا انه أجرى اتصاله بستيفن الذي كان في اجتماع لمحاولة تمشيط انجلترا بحثًا عن هؤلاء الشرذمة ورغم انشغاله إلا انه أجاب النداء متلهفًا:

-ماذا حدث مع الـ... المحقق هل نجح الأمر؟

جزَّ تشارلي على أسنانه بغيظ:

-نجح وببراعة، ثم صاح: الأمر فاق الحد ما فائدتنا هل نترك قضايا البلاد للصانع واختراعاته التي تعجزنا، إن هذه الصفقات معه وبال علينا نهدم أنفسنا بأيدينا.

لم يستطع ستيفن مجاراته وهو وسط الاجتماع فقال بكلمات مقتضبة:

-سنرى هذا الشأن لاحقًا، الآن هل هناك جديد بشأن أماكنهم، هل هناك ما ينجز في اجتماعي مع المختصين؟

-نعم أيها الضابط ستيفن نعم، هناك ما يسهل اجتماعكم السخيف بل ويحله وينهيه فلا حاجة لكم فلتجعلوها حفلة شاي من الأفضل، هناك كل جديد وسأرسله لك ولتقتصر وظيفتنا على كوننا كالأجهزة مرسلة ومستقبلة فقط أليس كذلك! ثم وبكل عزمه ظل يخبط الهاتف في مكانه عدة مرات أحدثت إصابات متعددة في الجهاز وقد أغلقت المكالمة من أول صدمة وهو يكرر نفس الكلمة بغضب: أليس كذلك أليس كذلك ستيفن.

تنهد ستيفن على الطرف الآخر وقد شعر بقوة إنهاء المكالمة ليس فقط للغيرة التي تسللت لقلبه مما فعله ألبرت، بل ولأنه يخشى على صاحبه يتمتم: ليتك تفهم تشارلي أن كل شيء جائز حتى نجد هؤلاء الشياطين حتى ولو تحولنا جميعًا إلى آليين!

ترجل ألبرت بين الناس والجميع عنده سواء.. كائنات ذات حرارة تلقائية وسوائل داخلية وكتلة خفيفة، وأكثر كائن منهم يحظى باهتمامه هو الذي تتجه خطواته لبيته الآن

-ويليام... ابني

كان ذلك هو جوابه على سؤال طُرِح في عقله مُرسل من الصانع: إلى أين تذهب؟

لم يخف على الصانع احتمالية حدوث ذلك، أن تحاول خلايا

المخ البشرية بداخل رأس الآلي المساهمة في قراراته والتأثير عليه، وكان شغوفًا في انتظار تلك اللحظة، ولكنه أراد أن يذكّره: لو كنت طرحت خلاياك البشرية ميتة لكنت الآن كالخردة

-كل الامتنان لك صانعي

-والطاعة ألبرت؟

-نعم والطاعة

-إذن لماذا غيرت مسارك الآن؟

-أردت رؤية ابني، وأظن ذلك لا يتعارض مع كونك راضيًّا عن اختراعك سيدي

-ليس من مصلحته أن يراك بلا ترتيب

-لم أذهب إليه ليراني... ولكن لأراه

رفع الصانع حاجبيه، ألهذه الدرجة والسرعة تتحكم الخلايا البشرية!

-حسنًا لك هذا

انتهى حوارهما الصامت ووقف على مسافة من بيته القديم الكبير الذي ضاق على أهله من بعده انتظر حتى رأى حافلة المدرسة آتية ويظهر من بابها حبيب قلبه المنزوع ابنه رفيق روحه المفقودة وفلذة

كبده المبتور، ثم رأى من البيت يخرج عمه مُرحبًا به بوجه بشوش، لعل وجودهما سويًّا أفضل.. ويليام يشغل فراغ أخيه وأخيه يعوضه عنه، تابعهما حتى أغلقا الباب وهو متسمر خلف مجموعة الشجر المقابلة، تدمع عيناه كمدًا وشوقًا بلا رواء.. يرتفع صدره ويهبط من تردد أنفاسه.. هذا ما كان ليحدث.. هذا ما رسمته خلاياه البشرية بداخله ولا تطبيق، ظل متثلج الملامح، كان يستطيع كشف حرارة الأجساد بداخل البيت ليتتبع حركة ابنه، كان يستطيع تثبيت مسجل صغير ليستمع لصوته، ولكنه وبخطوات جامدة رحل.. وحسب

ذهب لبيته في حي صامت نائي وفتح الباب بشفرة مسجلة في بياناته ودخل ولم يهتم بفتح الأضواء كانت عيناه التي لطالما مدحه عليها الناس ووصفوها بالمنيرة أصبحت منيرة بالفعل، شعاعين من الضوء بثا من عينيه ككشافين صغيرين، كان مشهده مرعبًا، ولكن لا أحد سواه يراه، لم يكن يعنيه في الشقة سوى مقعد معد له جلس عليه ليستكمل شحنه ويخزنه فما يستمده من الطاقة الشمسية لا يكفي، وقبل أن يبدأ راجع محتواه المسجل للأحداث التي مر بها وتوقف عند بعض الصور المعروضة أمامه في شاشته الهوائية.. إميلي من أصحاب الملفات الخاصة توقف عند صورتها قليلًا ثم أجرى اتصالاً بها من هاتفه الخاص به كآلة عند أذنيه وبصوت جاد على غير إرادة الجزء البشري فيه قال: مرحبًا إميلي. انتفضت لتمسك بهاتفها

الذي كاد يقع وبصوت مرتجف.. ألبرت

-أمازلتِ ترتجفين؟

-لعلي قريبًا أعتاد

-أنا أحتاجك

-هوى قلبها... ألبرت أنا...

قاطعها بجدية:

-بعد غد قبل المغيب عند قلعة ادنبرة أحتاجك في مهمة بسيطة أرجو حضورك للأهمية. غطت ملامحها خيبة الأمل، ما الذي كانت ترجوه من آلة على أي حال! قالت بصوت منخفض: الطريق طويل وأنا.. قاطعها بهدوء: إذن يستحسن أن تتهيئي من الآن ولقائنا عند البوابة الرئيسة. تنهدت باستسلام: حسنًا.

أراكِ هناك. وأغلق المكالمة الأذنية وقبل أن يغلق كذلك شاشته الهوائية بدأ في الشحن وثبت صورة شخص أمامه لبرهة ينظر له بنظرة مازالت غير واضحة.. الضابط ستيفن.. الذي بهتت صورته من أمامه لتتلاشى، أطفأ نور عينيه ليحل الظلام والسكون إلا من صوت رتيب لعملية الشحن

ابتسمت وهي ترى والدها راقد على فراشه يحتسي كوبه المفضل

من اليانسون الخالي من السكر والمنكه ببضع قطرات من الفانيلا، جلست على طرف الفراش تخفي توترها: أبي لدي خبر سار لك

انشرحت ملامحه لابتسامتها واستبشر خيرًا:

-أخبريني أنك مزقت فقاعة الماضي إميلي، هل اخترق أحدهم قلب صغيرتي أم ماذا؟. تعلم أنه يريد خروجها من صومعة ألبرت ولم يتوقع أن تقول:

-بل الفقاعة ازدادت سمكًا ومتانة أبي. عبس عبوسًا خفيفًا مقرونًا بثبات ابتسامته على شفتيه ولم يعلق فاستطردت: الخبر السار هو أ ألبرت.

-أخيرًا عزيزتي نطقتي اسمه، طالما ذكرتيه فلقد بدأتي تتعافي وتتخطي ما حدث.

قال كلماته وانتظر تعليقها الذي تجاهلته واستكملت بشكل مباشر: ألبرت مازال حيًّا.

استنفرت حواسه كلماتها فاتسعت عيناه، بل وأذناه.. هل ما سمعته صحيحًا! واعتدل فجأة من جلسته فأمسكت كتفه وقالت على رسلك أبي. قال بصوت علاه كمية كبيرة من الدهشة وكمية أكبر من الفضول: كيف حدث؟ وكيف علمتي؟ وأين كان؟ وكيف أصبح؟ هل شفي؟ هل مصاب؟ نذهب وندعمه في الحال في أي

مشفى هو و...

وظلت تقص عليه ما أمرها به ألبرت أن تخبر به الناس، سارقون انتشلوا سيارة الإسعاف واختطفوه لطلب فدية غير أن جريمتهم فشلت قبل أن تبدأ واستخلصته جهة من بين أنيابهم واعتنت به وعالجته وكان شرطهم إخفاؤه لعلهم يتوصلوا لبقية شبكة المختطفين، ولكن لا إشارة لهم إلى الآن فسمحوا له بالظهور وقد عاد بيننا سالمًا معافى، تتقطع بداخلها جاهدت لتبدو سعيدة وانتقلت سعادتها المزيفة إلى وجهه فقد مدته فرحتها بالطاقة فترك فراشه بنشاط:

-لابد من أن أقابل هذا الفتى الذي أحزننا لألكمه في وجهه الجميل... لكمة على وجنته وأقبل الأخرى تهنئة على سلامته، ضحك واصطنعت هي ضحكة مماثلة لتواكبه وأخبرته أنه سيجري اتصالًا به ويعتذر عن عدم مجيئه لانشغاله وحينما يتيسر سيأتي ليزوره، تنهدت وهي تغلق باب الغرفة وأشفقت على أبيها... لن يعلم أن من سيقابله... مجرد ماكينة!

***

القلعة

أمام قلعة ادنبرة وقفت تشعر بالهيبة من عمق تاريخها ومن بنائها على بركان خامد ومن مقابلتها مع حبيبها الروبوت العضوي في أجوائها، وأيضًا من جهلها سبب وجودها، ولكنها تحاول أن تثق به وفي نفس الوقت تخشى عصيانه فهي لا تعرف جوانبه كشيء خارق للطبيعة، امتدت يدها لتسكن خصلات شعرها خلف أذنيها فقال لها من خلفها:

-أنا أيضًا لم يكف الهواء عن مداعبة شعري. التفتت بسرعة وابتسمت وكأنها تنسى بالفعل للحظات أنه ميت، ربما لابتسامته الطبيعية ورونقه المعتاد غير أنه تخلى عن بذلته اليوم وارتدى ملابس رياضية أنيقة، لم تتمكن من التأمل فيه جيدًا فقد فاجأها بصحبة غريب.

-أعرفك بالضابط ستيفن... إميلي صديقة قديمة.

وجهت له نظرة عتاب خفية.. هل نسي أننا كنا على وشك الـزواج!، تغلب على ضيقها قلقها.. لماذا يصحبنا ضابط برداء عادي، في حين يحدث ستيفن نفسه:

لولا إصرار ذاك الصانع على تقييدنا بشروطه لكنا الآن نقتحم

المكان بيسر وحنكة بدلًا من أن نتعامل مع أمر جلل كهذا كضابط بلا صفة رسمية وفتاة مدنية وروبوت عضوي!، وكذلك يحدث ألبرت نفسه:

ما كنت لأخاطر بإميلي في مهمة كهذه، ولكن لابد من ظهورنا بشكل طبيعي ووجودها يضمن ذلك بالإضافة إلى أن سيرة البروفيسور سبستيان تسبقه على الأقل يضمننا على إثرها إن حدث في الأمر ما يُريب حتى نستدرك ما تبقى من فرص ولابد من قطع الطريق على الصحافة بعدد عارفين أقل مما ينبغي فلا ثغرة يرتشفون منها خبرًا ولا دسائسهم، صانعي دائمًا ما يصيب في انتهاج السرية دوما.. وهذه ثقة بي.. وأنا في محلها، ثم قال بهدوء:

-هنا تمامًا مهمتك، فقط قفي مع الضابط ستيفن وحاولا منع أي حارس أمن من النزول من هذا الدرج. ابتسمت بشيء من التهكم:

-كيف هذا؟... ربما لو أظهر الضابط ستيفن هويته أو أخذتم أمر رسمي بالتجول إن كان ما يؤدي إليه الدرج ليس للعامة. أنهت جملتها وهي تنظر لستيفن كأنها تطلب تأييدًا فنظر ستيفن إلى ألبرت الذي قال بجدية وهو يقترب منها:

-إميلي الأمر سري إنها مهمة خطيرة نوعًا ما ولن أزج بكِ فيها

فقط تسدي لنا مهمة تعطيل أي أحد لمدة سبعة عشر دقيقة. ذكرتها دقته في حساب الوقت بكونه آلي فكرهت مناقشته وأومأت برأسها موافقة وهي تفكر في وسيلة لتنفيذ أمره.. تشرب من زجاجتها جرعة ماء لتبتلع رفضها غير المقبول

-حسنًا، ولكن المكان بالأسفل كنت أتوقع أنه مفتوحًا للزوار

قال لها وهو ينظر لستيفن: إما أنه ممنوع عن السائحين عمومًا أو يبدو أن هناك جهة مسيطرة عملت على إغلاقه مؤقتًا

ثم انطلق مسرعًا وتنحنح ستيفن ينظر بجانب عينيه لإميلي ذات الوجه الشارد وقال لها بلطف:

-الأمر سري لذلك لم أبد هويتي إلا إن تطلب الأمر، هذا جواب استفسارك.

-ما الذي تنويان فعله هل لي في إيضاح من فضلك

-قضية شائكة آنستي

-وهل أصبح ألبرت يعمل في الشرطة؟

-مع الشرطة... مع الشرطة آنستي

-وهل تثقون فيه إلى هذا الحد؟

صمت لا يدري أحقًّا واثقين؟؟، اقتربت منه وتلفتت حولها

وقالت هلا جاوبتني ضابط ستيفن، هل تعلم حقيقة ما حدث لألبرت؟

-لا أعلم شيئًا

نظرت له فجأة بغضب وقالت:

-هذا لأنك وغد حقير

نظر لها بعينين متسعتين دهشة تستجلب الغضب وقال ماذا لماذا تـ..

ثم سكبت في وجهه بعض الماء من زجاجتها وقالت سأفضحك أيها السارق.

أمسك ذراعها بقوة: هل جننت. قالها بغيظ مهددًا فغمزت له، وفي أقل من الثانية فهم أنها تلعب لعبة لتشتت انتباه من كان على وشك الهبوط، فرد أمن كان للتو خطى درجتين من السلم الذي وظفها ألبرت لمنع أحد من المرور فوقه

-ماذا هناك يا آنسة؟

قالها رجل الأمن فتلجلجت ثم استعادت اتزانها وادعت الغضب تشير إلى ستيفن بذراعها كله:

-هذا الرجل كان بجانبي ظل يسألني عن طريق الخروج

متصنع الود يربت فوق ظهري مدعيًا الترحاب ثم وعندما فتحت حقيبتي لأخرج الخريطة لم أجد محفظة نقودي

اندمج هو بدوره وصاح:

-الزمي حدك يا فتاة أنا لست سارقًا أستطيع مقاضاتك على اتهامك. أفرطت في الصخب وتجمع بعض السياح حولها وألقت حقيبتها أرضًا بعنف فجذب رجل الأمن حقيبتها وقال:

-سيتم تفتيشك سيدي وكذلك الحقيبة. ازدردت لعابها وانهار صمودها حينما فتح الحقيبة ووجد المحفظة ببساطة أما نظرته لها فكانت عكس ذلك، بل كانت شكًّا ووعيدًا، وانقض على ذراعها قائلًا بغضب: أنت في مشكلة كبيرة يا فتاة

فقط تمنت في هذه اللحظة لو أنها تُقذف بعيدًا كقذيفة مدفع ادنبرة الأسود لتنجو من مأزقها وخفق قلبها بقوة و... خوف

***

لم يكن من السهل على أي شخص التسلل في ظل إغلاق أسفل القلعة سوى شيء معدني كألبرت فلا حرارة لجسده تُلتقط ولا كاميرا ستصمد أمامه، وهذا ما فعله فور وصوله ألغى نظام تشغيل حرارة جسد الإنسان العادي وأصبحت حراراته كحرارة أي جماد بجانبه، وبتشويشه استطاع تشتيت عمل الكاميرات وأصبح يتحرك بحرية

وسرعة، تخطى غرف السجن الأثرية برائحة الماضي الكئيب الذي لم تلتقطه أنفه البتة، سجون إما كانت تبتلع سجناء أو مرضى الطاعون إذ احتُبِسوا.. يمشط الأرواح ليرسلها إلى العالم الغامض، الأنفاق ذات القِدم المُسكّر للحاضر.. مرّ على صرخات السجناء المسجلة في شقوق أحجار ادنبرة لا تنفصل عنها.. صمتها مريب وكئيب محيطها، تخطى أهوالًا لو نطقت الأنفاق لأشابت شعر الحي وتضفي على الميت مزيدًا من الموت، ثم وقف أمام باب صغير شديد القِدم صعب الملاحظة يصل طوله لما فوق الركبة بقليل ومغلق بإحكام استنفذ في فتحه أربعة دقائق ولم يكن يجهل ما يدور بالأعلى بل ثبت في ملابسهما ما يعرف من خلاله ما يحدث، كان يعمل بسرعة خرافية ليدركهما وليكشف مكان آكلي لحوم البشر في الوقت ذاته، كل ذلك يتم بقلب بارد لا يفقه سوى أداء المهام بنسبة نجاح تتعدى المئة بالمئة، انبطح وظل يدفع نفسه للأمام لا يستقبل صوتًا ولا حرارة ولا.. مهلا.. سجلت مستشعراته درجة حرارة يقترب من مكمنها، أتكون نابعة من البركان الخامد تحت القلعة؟ لم يرجح هذا الاقتراح فمستشعراته لها حدود مساحية لن تلتقط شيئًا بهذا العمق ثم إن الحرارة تافهة وكأنها حرارة مصباح إنذاري، انتهى زحفه ليصل إلى غرفة يستطيع الوقوف بداخلها، وقف في حيرة فالغرفة فارغة، باقي من السبع عشرة دقيقة اثنتان وثلاث ثوان ولا نوافذ أو

أبواب أو سرداب، ظل بسرعة مجنونة يمسح على كل الجدران لعله يستقبل فراغ خلفي وبالأعلى يتلاومان إميلي وستيفن على التفتيش والحقيبة ويسمع رجل الأمن وهو يفتح حقيبتها، ويعمل بجنون أنا أستشعر حرارة طفيفة من أين إذن؟؟، يسمع رجل الأمن يهددها.. أنتِ في مشكلة كبيرة يا فتاة، نعم يقترب من الحرارة خلف حجر أسفل الحائط المقابل للنفق الذي زحف بداخله، وبحركة واحدة انتزعه ليجد ما هو أسوأ من البركان الخامد، وجد مصباح صغير بالفعل كما نجحت مستقبلاته في التقاطه.. مصباح يُظهر أرقام على شاشة سوداء ذات عد تنازلي .. قنبلة! والتي ستنفجر في أقل من دقيقة وبسرعة خارقة ارتد للنفق ليرجع وإلا ساح كل ما يحتويه من معدن ولينقذ صديقيه بالأعلى وتحذير البقية فمردود القنبلة واسع، وبالفعل زحف وها هو الباب القصير لكن للأسف علق بفعل فاعل أو لا.. ولكنه علق!

***

-اه لا لقد كنت... إمم

-كفي عن الكلام وتعالى معي، وأنت أيضا أيها السيد تحقيق صغير وكشف على كاميرا المراقبة. ارتج المكان وسمع الجميع صوت قوي أثار الذعر فهرع السياح يخرجون من المكان وأحدهما

اصطدم بستيفن يقول في هلع: البركان استيقظ لابد من أنه استيقظ سنموت سنموت. اتسعت عينا ستيفن ينظر أسفل السلم وعبس رجل الأمن وترك إميلي ليرى مع زملائه ما الذي يجري وقد كانوا أرسلوه ليستكشف المكان السفلي حيث أن الكاميرات حدث بها عطل ما! ولم يستطع حينها النزول لما فعلته إميلي لتعطيله عمن عطل الكاميرات، أما هي فلا تدري أتهرب أم تبقى لتطمئن على ألبرت أم ما الذي لابد أن تفعله ونسي ثلاثتهم تمامًا قصة الحقيبة وكأنها لم تكن، ومع الضغط الرهيب ورؤية نار ترتفع من الأسفل وارتفع الصراخ كارتفاع درجة حرارة اللهب الصاعد من أسفل الجحيم

مستلق على الأرض يزحف كالثعبان يدفع بذراعيه القويتين وبرأسه ذات الجمجمة المعدنية.. وفجأة انفجرت.. صوت كان ليصم سمعه للأبد وضغط أطاح به وبالباب دفعة واحدة تحرك كالآلة فور الاندفاع وركض والنار تجري خلفه فأحرقت ملابسه وجزء من جلده وبثلاث قفزات ابتلعت ساقيه السلم وبذراعه اليمنى التقط إميلي الصارخة تحت إبطه وبيسراه سحب ستيفن من ذراعه وجرى بهما بسرعته الخرافية فسبقا كل من غادر قبلهم وتركوا خلفهم جحيم لم تعهده جدران ادنبرة منذ أمد بعيد

ووسط ضحايا الفزع سقط ثلاثتهم من أثر الركض كل مشغول بالاطمئنان على نفسه عداه فلا فارق لديه، ستيفن أصيب

إصابة خفيفة في ذراعه من قوة جذب ألبرت له وإميلي لم تصاب إلا بالغضب، وفي ثوان معدودة كان عقله الإلكتروني قد صنع تقريرًا عن ثلاثتهم هل توجد إصابات ومدى درجتها، بالنسبة له فاحترقت سترته الفوقية من الخلف وأجزاء من جلده الطبيعي الذي يتخلله نوع آخر من جلود الحيوانات، استند ستيفن على ذراعه السليم وقال بريبة: ظهرك مشهده ملفت وغريب لابد من تغطيته هل عندك خاصية لذلك؟

قال ألبرت بآلية: لا

منشغل بعمل تقريره عن العملية برمتها لم يكترث ليضع بصمة تفاعلية على نبرته وظل جالس على ركبتيه لا حراك ولا تعبير، قامت من سقطتها تزيل آثار التراب بعصبية ثم اندفعت مسرعة وغاضبة نحوه تقول: أنت أبشع نسخة من ألبرت أناني مستغل مؤذي كيف تعرضني لهذا الخطر! لم يجاوبها وبدا وكأنه لم يسمعها من الأساس، وعلق ستيفن بصوت منخفض متلفت حوله: اخفضي صوتك واهدأي. أشارت إليه بإصبعها عابسة تقول بحدة: لا تطلب مني ما ليس بوسعي أنا في شدة غضبي الآن ولا تأمرني أنا لست في قسم الشرطة

عبس وكبت رده عليها واتجه لألبرت وسأله بجدية: ما الذي حدث هل وجدتهم؟

لم يتلق من الروبوت أي إشارة فقط يثبت نظره أمامه في جمود، تأفف وحاول تهدئة نفسه ابتعد خطوتين وقرر الانتظار حتى يستجيب الروبوت لعله يعيد تشغيل ذاته!، أما هي فاستشاطت غيظًا وانقضت على الروبوت تدفعه بقوة ظنت أنها كافية لتنفيس غضبها:

-تكلم قل شيئًا أنا لم أعد أحتمل التعامل مع قطعة معدنية وظلت تضربه حتى تحرك وأمسك بيدها دون أن ينظر إليها، حاولت التملص واستنقاذ يدها من قبضته لم تفلح، قام واقفًا وهو ممسك بها ثم نظر لها بغضب انتقاه جهازه ليقابل غضبها بما يماثله: اصمتي يا امرأة

صرخت: ابتعد عني. فبيده الأخرى كتم فمها وظل يدفعها للخلف فألصقها بأحد الجدران وحينما قرأ بمستشعراته استسلامها أبعد يديه وقال اذهبي من أمامي.. وأولاها ظهره

مـ ماذا.. ارتفع حاجبيها بعد عبوسهما من صدمتها بصوته الآلي وأسلوبه الفظ

-هذا ما كان يدل على خطبتنا وقرب زواجنا لم أعد أحتمل ثقله على نفسي ولا حتى في إصبعي. ألقت الخاتم الرقيق الذي نظر له الروبوت كرد فعل آلي ليتفحصه، وفور ما التقط مخه تفصيل عنه رجعت خلاياه البشرية للعمل، قال بما يشبه الحزن: لا إميلي انتظري. ولكنها كانت قد ركضت بعيدًا وقبل أن يقترب أحد ممثلي

القلعة ليتمم على سلامتهما كما الباقين أسرع ستيفن وخلع سترته وألبسها له.

-هل أنتما بخير؟.

قال ستيفن بتلقائية:

-أشكرك نحن بخير فقط كدمات خفيفة

-هل لي في مساعدتكما في الكشف عليها علها تحتاج إسعاف أولي حتى تذهبا للمشفى؟

-أوه لا، أشكرك... ليس شيئًا. فأومأ الرجل برأسه واتجه لألبرت وقال بروتينية: وأنت سيدي هل أساعدك؟ وقبل أن يجاوبه قال ستيفن: بل نحن بخير فقط فُزعنا، ما الذي حدث بالضبط؟ قال الرجل باقتضاب: جاري العمل على كشف الأمر، مجموعة كبيرة من المختصين والأجهزة كما تعلم الأمر يحتاج لبعض الوقت لنتأكد مما حدث ومسبباته. والتف راحلًا فاستوقفه سؤال ستيفن: لعل كاميرات المراقبة تظهر ما حدث أليس كذلك؟ قال الرجل وهو يمشي مبتعدًا: من قبل الحادث وحدث خلل في بعض الكاميرات، أما باقي الكاميرات كانت لتوصلنا لشيء لولا ضغط اللهب أفسدها، علّ المختصين يصلون لشيء بالأساليب التقليدية. قال ستيفن بحيرة مصطنعة وقد حصل على ما يطمئنه: نعم نرجو ذلك.

ثم اتجه لألبرت:

-أجبني لا أطيق صبرًا. قال ألبرت آمرا: صلني إلى المباحث.. هناك سأفرغ تقريري على أجهزتكم

***

كانت قبضة تشارلي تغوص أكثر بداخل بطن الفتى يقول بغضب هادر:

-تجرع ثمن خديعتك أيها الوغد كما تتغذى على الحيوانات أشباهك أيها المسخ، قل لي من قائدك أجب أيها الشاذ.

وأتبع ذلك بلكمة في صدغه دفعته ليرتطم بالجدار حتى تكوم يصدر منه أهات مكتومة، كانا ألبرت وستيفن يقفان خلفه بصمت، تقدم الثاني نحو تشارلي لتهدئته فصاح بهستيرية وأبعد يده بغلظة: ابتعد عني لابد أن يتكلم. وانهال على رأس الفتى بقبضة يده.. كف عن العناد انطق. فنطق الفتى بضعف وهو ينظر لألبرت بسخرية حاول إظهارها وقد تداخلت ملامحه من أثر العنف

-لقد تغلبت عليك أيها الشرس المقيت، تغلبت عليكما أيضًا، تغلبت على الجميع.

ثم ظل يضحك بضعف فشبك تشارلي يديه ببعضها وسدد

له ضربة قوية فغاب في التو عن الوعي، قال ستيفن: قلت لك اهدأ ستقتله

-بل قتله بالفعل

نظرا لألبرت بقوة فأردف: لقد مات، لم يكن سيفيدنا على أي حال

قال تشارلي وهو يتهاوى على الأرض بيأس:

-أنا أوافق ألبرت على رأيه، لقد استنفذنا كل شيء معه ولا فائدة مرجوة منه بل بالعكس أصبح ضررًا علينا كاد يفجركما مع مزيد من الأبرياء، ولا ندري أي اعتراف آخر منه إلي أي مصيبة أخرى سيوصلنا.

قال ألبرت وهو ينظر إلى الفتى الذي مال جذعه ليتكوم على الأرض كخرقة مهرتأة:

-هناك احتمالين يظهران أمامي الآن. نظرا له باهتمام.. إما أنه مدرب على الأسر وماذا يقول إن اضطر للفصح عن معلومات وكانت قنبلة ادنبرة مدبرة منذ مدة كبيرة احتياطيًّا لحدوث ذلك، أو..

صمت قليلًا وولى لهما ظهره: أو هناك من يتواصل معه ويمده بالمعلومات أثناء وجوده فترة حبسه هنا.

صاح ستيفن مستنكرًا: كيف يكون هذا الهراء غير معقول

فقبضتنا محكمة عليه. استدار ألبرت بتحدي وزاد فيه إذ استطرد: والاحتمال الثاني هو الأرجح فالقنبلة معدة للضبط على سويعات فلقد وضعت حديثًا وليس قبل قبضكم عليه، فهو عَلِمَ بفخ القلعة هنا وفي هذا المكان.

نظرا لبعضهما بتعجب مشوب بالقلق فقال تشارلي: ولكن المكان شديد الحراسة كثير التأمين ومتقن المراقبة كيف يكون ذلك! بينما نفث ستيفن بشدة يقول: هذا أمر يدفع إلى الجنون. ظل ألبرت صامتًا فلا يوجد شيء آخر يضيفه فهرول إليه تشارلي بنظرة راجية وقال بالتماس:

-قل لي أن هناك حل غير أن نظل في انتظار حادث آخر في شوارع انجلترا، قل لي أن حاسوبك... أن عقلك يخبرك باحتمالات أخرى نتبعها غير العجز وانتظار الطوام الكبرى لنصطاد مجرم آخر ليكون مثل هذا صيد عقيم ونظل في دائرة مغلقة حتى نؤكل جميعًا! انتهى من سؤاله ولم تنتهي عينيه من التعلق بعيون ألبرت ومن الرجاء، طال الصمت فأمسك بسترته بقوة وقال آمرًا أجبني أيها الروبوت ما احتمالاتك الآن؟ قال ألبرت: -لم يختلف عقلينا أيها المفتش في النتيجة فالإجابة واحدة.. الانتظار

***

إحساس مفاجئ

لم تجد إميلي حلًا لإماطته من وجدانها إلا بالانشغال عنه والانخراط في مهام عديدة والتواجد الدائم وسط الناس وعدم انزوائها مجددًا، خططت لما ستفعله اليوم وهي متجهة لغرفة مكتب والدها وقبل أن تنقر بعقلة إصبعها الباب نقر صوته طبلة أذنها، ألبرت هنا! انتابتها رعشة خفيفة إلا أنها صفعت دهشتها بكف العزم وفتحت الباب ببطء، لم تنتبه أنها بملابسها البيتية العادية، لم تكترث لعدم تأنقها وفكرت.. أكنت سأتأنق إن فتحت جهاز المبرد أو الحاسوب!

سمعت والدها يقول بود:

-حقًّا لا أدرى كيف أحتفل برجوعك وشفاؤك عزيزي لابد أن أدعو الجميع في احتفال صاخب أنا في غاية السعادة. قال ألبرت بنبرة تحمل كل الامتنان:

-احتفال الفرحة في عينيك يكفيني ويرضيني من الترحاب ما تلقيته منك حقًّا ليس هناك ضرورة لدعوة أحد.

-أنت أصبحت أقوى مما سبق، في لباقتك ولياقتك، تنبض

بالنشاط والحياة بني.

هنا انفجرت إميلي ضاحكة فالتفت أبيها مندهشًا.. عزيزتي أنت هنا؟

-للتو جئت وأعجبني أنه ينبض بالحياة مجددًا أليس كذلك ألبرت!

-وكيف لي أن لا أحيا وأنا وسط أحبائي وعائلتي.

دمعت عينا البروفيسور:

-لقد كان خبر اختفاؤك صدمة كبيرة أطاحت باللب، لكن هذا لا يمنع أن ننسى الماضي ولا عائق الآن لإتمام زفافكما، هل يناسبكما الأسبوع القادم؟.

قالت بسرعة: لا

اتسعت عيناه قليلًا ولم يستوعب ماذا تقصد بلا.. فتدارك ألبرت بصوت سعيد مقتربًا منها:

-أنها تقصد أن الموعد قريب للغاية رغم أني أرنو للاستقرار والتفرغ لدراستي في جو دافئ سعيد يعوضني عما مررت به.

نظرت له استنكارًا وفتحت فمها لتعترض عِندًا فنظر إليها نظرة لم يراها والدها، ولكنها كانت كافية لخرسها. اتجه والدها إلى باب

المكتب سعيدًا: حسنًا تهيأ إذن

ثم توقف ونظر إلى ألبرت الذي رد ابتسامته الودودة إلى شفتيه الجميلتين وقال بحنو: من الآن لا تقل لي سوى أبي اتفقنا؟

قال ألبرت وقد أتقن أن يقول: حسنا أبي. خرجت منه إلى قلب الرجل كبلسم أنعش الحنان فتجدد دمع عينيه فواراه واستدار راحلًا يقول.. حسنًا تشجعا لأجد من يقول لي يا جدي

-هذا هو المستحيل بعينه.

تمتمت في خفوت وبدون أن تنظر إليه انطلقت راحلة خلف أبيها فاستوقفها ممسكًا ذراعها بقوة وجذبها إليه فارتطمت بصدره وكاد يختل توازنها ونظرت له بخوف فأغلق الباب بيده الأخرى وقال بنبرة صارمة:

-استأمنتك على سري هل تريدين البوح به؟!

حاولت استعادة شجاعتها وتجنبت النظر في عينيه تحاول تخليص ذراعها عبثًا

-أنت شيء مقيت محى بذكرى أصبحت أليمة كيف لي أن أسايرك وكيف توافق على إتمام الزواج وكأنك نسيت من تكون أو ما تكون؟!

أمسك بيديه الأخرى ذراعها الآخر ليكبلها أمامه ويجبرها على النظر في عينيه وقال بصوت لا يُنذر بخير:

-ما أكون؟! هل نسيتي أن بداخلي شيء مني مازال يُدرك. خافت وانتابتها تلك الرعشة مجددًا ولم تستطع الكلام وكادت تبدأ في البكاء ولربما الصراخ، استشعر هو كل ذلك ترجمه في ثوان للغة الآلة ورص احتمالات الموقف وكل الحلول، كيف أهدئ أنثى وأجعلها تستكين، فعّل برنامج آخر وابتدأه.. صنع تنهيدة مزيفة وفك عبوس حاجبيه وأغمض فيروزيتيه قليلًا وكأنه يتغلب على غضبه وهي تراقب وتهدأ مثله، ثم أرخى قبضتيه واستبدلهما بتربيت خفيف مسح على ذراعيها بكلتا يديه بحنان ورقة وكأنه يمحى ما كان منهما، انكمشت واستلذت ما يفعله وحاولت الاستئذان فأمسك ذقنها بأنامله يوجه نظرها لعينيه برفق وقال بصوت شديد الهدوء: سامحيني على غضبي وعلى كل شيء أنا آسف.

خارت قواها ليس من هدوء صوته الذي سرى كالخدر ولا لطلب السماح الذي كاد يمحى كل شيء، ولكن لعينيه.. إنها ساحرة أكثر مما ينبغي.. نظرته الهائمة تأسرها ظلت محدقة فيهما تشعر بخطورة الانسياق وترغب به، دمعت عيناها.. مسح بظهر أصابعه وجنتها وقال حبيبتي هـ.. لم يكمل جملته فقد فقدت السيطرة على ساقيها كادت تسقط من فرط.. كل شيء، أمسك بخصرها ليمنعها

من السقوط فحاولت تمالك نفسها فاقترب أكثر وأحاطها بذراعيه وبهيام ضمها إلى صدره.. أغمضت عينيها باستسلام محبب حواهما الصمت وملأتها الرغبة في احتضانه أكثر فلبى

همس في أذنها.. أمازلت تحبيني إميلي؟. كان صوته عميق فاقشعرت، فقرب شفتيه تحت أذنها ولامس فقط.. ظل يلامس بشكل متتابع وهي تسلم له نفسها وترخي صمودها ومن عنقها إلى شفتيها فـ

أفاقت مبتعدة تقاوم، ولأنه لم يكن يتوقع ولم يكن يكبلها استطاعت الابتعاد عنه واستفاقت من الحنين بالغضب وقالت بعصبية وهي تبتعد عنه أكثر:

-مخادع أصبحت يا ألبرت، جميل من خارجك ومشوه داخليًا حتى أفكارك أو برمجتك أو أيًّا ما يحركك فهو مشوه أيضًا أو تظن أن أي فتاة أمامك ستخضع لك وتأسرها بهذا الهراء! لا فلتعلم أن من أصلحك قد خرّب عقلك البائس، وأن ليست كل فتاة رخيصة وليس كل ما فيها تصل إليه. لم يكن ألبرت بشرًا لكي يحب كما كان أو يصبر إن لزم الأمر، قال لها بتهديد واضح: كفي عن صياحك وإلا أخرستك.

وقبل أن تركض أو تصرخ كان قد مد ذراعه وكتم فمها أما هي

فتحركت يدها بسرعة لتلتقط تمثال ساعة «بيج بن» المعدني من على مكتب والدها وبكل عزمها ضربته في ظهره لعلها تكسر له ضلع معدني أو تفسد أحد مستشعراته حتى يتيه عنها ولو للحظة تهرب فيها ويُفضح، محاولة لم تجد سواها وتمكنت منها بالفعل رغم أنها كانت واثقة أن ضربتها لن تكون بالقوة اللازمة إلا أن ما حدث لم يدهشها هي فقط، بل أدهشه هو أيضا!!

***

خذلان

قال بابتسامة عريضة وجسده يتمايل راقصًا مع الموسيقى:

-لن أندم أبدًا على اصطحابك معي الليلة إنكِ تشعي نشاطًا وجاذبية.

أطلقت والدة مارثا ضحكتها الصاخبة وضربت وجنة جون بأطراف أناملها: كف عن استمالتي بكلماتك الحلوة أنت بارع في المجاملات. قال لها وهما يستديران مع الرقصة داخل الاحتفالية الصغرى التي تقيمها هذه الكافيتريا للمناسبات وقد دعاها لذكرى يوم ميلاد أخيه ولفها بيديه حتى بات ظهرها له وانعكاس صورتهما في المرآة حديثة الطراز: انظري إليك ألا ترين امرأة ناضجة بروح فتاة لم تكمل عقدها الثاني. استدارت لتواجهه وهي تنهي رقصتها وتقول بتنهيدة صغيرة: آه جون ذكرتني بما مضي. ثم تركته لتجلس على مقعدها ورافقها بقبلة في الهواء قبل أن يذهب ليطل على أخيه وباقي الأصدقاء، أخرجت هاتفها وهي لا تستطيع تثبيت قدمها ورأسها عن إطاعة الموسيقى رقصًا. مرحبًا عزيزتي لم تأخرتي؟ جاوبتها مارثا وهي تمضغ علكتها وتعبث بطرف شعرها: أين أنت

يا أمي اتصلت بك ولم تجاوبيني؟

-أوه مارثا آسفة لقد كان الهاتف بعيدًا والمكان هنا صاخب لم أسمعه

-لاحظت ذلك، أين أنت اليوم؟

-أين أنا! يوم ميلاد أخو جون، اليوم رائع، أنا التي من المفترض أن أسألك لماذا لم تأت؟!

تقدمت للأمام في جلستها تقول بتعجب: أليس الاحتفال في الغد الأحد؟؟

-بل السبت، أنسيت الموعد؟.

قامت واقفة بعصبية وعلى صوتها: لا لم أنس أمي، بل أنا متأكدة أنه أخبرني أن الموعد هو الأحد وليس السبت ولماذا لم تذكريني بالموعد؟ قالت أمها بحيرة: لم أتوقع أن تنسيه، ثم إني كنت في المصنع وخرجت منه إلى الكافيتريا حتى ملابسي اخترتها مناسبة للسهرة وذهبت بها للمصنع هكذا أتتخيلين؟

-لم يعد هناك شيئًا أستطيع تخيله وتوقعه الآن. قالتها بغضب وهي تنهي مكالمتها بعنف، ألقت الهاتف على فراشها ونظرت لنفسها في مرآة غرفتها الكبيرة وحلت رابطة شعرها ليسدل شعرها

على ظهرها كأشعة الشمس يقول فكرها: لماذا لا يراني كما أرى نفسي أو ينجذب كما ينجذب الآخرون لماذا أحبه وهو يهملني أكثر مما يهمل الشجر أوراقه الخريفية، تتذكر إميلي ووصفها لشعورها مع ألبرت بأنه يجعلها تشعر بالدفء وصبغته في قلب الصيف تتمتم: أما أنا فأشعر مع جون بمزيد من البرد في باطن الجليد.. أنا لا أستحق كل هذا حقًّا لا أستحقه

طلب جون اثنين من عصير الأفوكادو وقال لوالدتها بود:

-لماذا لم تشبهك مارثا في طباعها كما تشبهك في ملامحها الجميلة.

ضحكت ضحكة قصيرة وقالت:

-هذا يعني أنني ذات الجمال الأصلي. نظر لها باستنكار مرح: أنت مفعمة بالجمال الطبيعي وصانعة للجمال المزيف أيضًا هل استحوذتِ إذن على كل أنواعه!

رسمت على حاجبيها عبوسًا كوميديًّا وقالت: لا تذكرني، أنا أمر ببعض الصعوبات في هذا العمل. رفع حاجبيه بدهشة مصطنعة:

-أي صعوبات قد تواجهك في عمل بسيط كهذا، بضعة ألوان صناعية ومواد أخرى لا أعرفها ويخلطون فيصبحوا أدوات لتجميل القبيحات والمهووسات بمزيد من الجمال. نظرت له بضيق حقيقي:

-ليس عملي هزليًّا كما تصفه إنه مصنع قائم على المنتجات الطبيعية

فقط أي أنه يعطي لنا جمال وقتي وحفاظًا على نضارتنا فيما بعد.

بدا غير مهتمًا وأراح ظهره وقال بعدم اكتراث: لا أظن إلا أنك تروجين لعملك وهذا حقك. قالت بتحد: نعم لأنك جاهل لا تعلم أنني مصرح لي بأخذ كميات محددة بعقود من جلود حيوانات ومواد من أجسامهم اكتُشِفَ معمليًّا أنها تحافظ على بشرتي وبشرتك وبالطبع كل هذا يتم قانونيًّا وبإشراف من منظمة حقوق الحيوان. قال لها بضحكة بدت لها ساخرة: إذا هل تضعين الآن على وجنتك وردي من أنف أرنب وأحمر شفتيك من دمه والأبيض تحت حاجبيك من ذوي الدماء البيضاء ولا أظنه سوى صرصور. وضحك على دعابته السمجة فلامته بجدية: حقًّا جون أنت مزعج، لم تكترث أني أخبرتك أنني أواجه صعوبات وأنت تسخر وكأنني أعمل في مزرعة أو في فتحة مجاري.

أخفي من ضحكته الكثير: أعتذر لك عزيزتي أحب المزاح معكِ حقًّا، حدثيني ماذا بك ما الذي تواجهيه في العمل؟

-أواجه صعوبة في إيصال شحنة هامة من مواد مستخرجة من الحيوانات وبعض التعقيدات في التسليم

-أمسك يدها وقال باهتمام: أخبريني بالتفاصيل وأعدك أنني سأتصرف، لدي علاقاتي وربما أمكنني فعل شيء.

-لست مضطرًا أشكرك عزيزي

-لا لا أنا معكِ فقط أخبريني... وبالفعل أخبرته عن نوع الشحنة ووقـت وصولها ومكان التخزين ومن المسئول عن التصاريح حتى يحاول معها استخراج تصريح للتسليم، وأثناء ذلك وهما منهمكان ولم تمر الساعة إلا وقد وصلت مارثا بخطوات مغتاظة وسريعة دلفت إلى المكان وعينيها لا تبحث عن أحد سواه المستفز... أين هو؟، لم تبذل جهدًا في البحث بل وقفت على رأس الطاولة فانتبهت أمها وقالت ضاحكة مرحبة: أخيرًا ابنتي المتأخرة. نظرت لأمها من جانب عينيها بلا اكتراث وثبتت عينيها في عينه الذي وقف واضع يده على كتفها يقول ببساطة: لماذا تأخرتي لقد انتهى الحفل. أزاحت يده بعنف: إلى متى إهمالك لي! أنا لي صبر لم يعد يكفي لك. نظر لها بتعجب برئ: أظنني أنا الذي من المفترض أن يغضب، دعوتك ولم تأت في حين أتت أمك الرائعة، وأيضا حينما أتيت صحبكِ عبوسك ومظهرك غير اللائق بحفلي

-هذا لأنك غير لائق بي ولا بأي أنثى لها مشاعر، ألم تخبرني أن الحفل يوم الأحد؟ اليوم هو السبت جون. رفع حاجبيه وكأنه اكتشف حقيقة اللبس:

-آه عزيزتي أنت سمعتني بشكل خاطئ، لقد قلت لك السبت

وأنت سمعتيها الأحد انظري إن نطقهما متقارب سبت أحد... سبت أحد، هذا إذن ما يبرر موقفك... أسامحك. قال جملته وهو يرفع كتفيه ببساطة ويرخيهما. نظرت له بغيظ مندهش لا تدري بماذا تواجه سماجته فقالت والدتها بإرهاق.. حسنًا أترين أنه خطأ غير مقصود هيا بنا سأوصلك. أومأ لها وقال: أراكما لاحقًا. والتف راحلًا موليًّا لهما ظهره بنظره كانت ودودة ما لبثت أن تحولت إلى نظرة خبيثة مرحة صدّقت عليها ابتسامة من جانب شفتيه التي همهمت..

-شكرًا سيدتي... أنا في غاية الشكر

***

بكل قوتها وجهت ضربتها في ظهره فالتف بمرونة وبظهر يديه صفعها على وجهها لتطير في هواء الغرفة وترتطم بشدة في حرف المكتبة وتفقد الوعي أو ربما تفقد أكثر منه.

هذا ما كانت تتوقعه إميلي وهي تضرب ألبرت، ولكن لم يكن أمامها سوى المحاولة، أتمت ضربتها فاخترق أذنيها صوت أصابها بالدهشة ليس صوت الصفعة المنتظرة وإنما صوت تأوه وألم تلقائي، ما لبث أن اتسعت عيناه كذلك، نظرا لبعضهما بتساؤل صامت ثم قالت بصوت منخفض حائر: هل الروبوت يتألم؟

-لا إميلي، ولكنني لم أتألم فيما هو أكثر، فكيف ضربتك تلك تؤلمني؟!

نسيا ما كانا يتصارعان بشأنه وحاوطهما الغموض، استأذنته على استحياء وهي تمسك بقميصه تقصد أن يكشف عن ظهره فخلع رداءه فامتعضت ملامحها للحظة وقالت: ألم تصلح أثر الانفجار في ظهرك. كانت متلجلجه فمشهد جوفه أخافها.

-سأتواصل مع الصانع ليعيد هيكلة ما تم تدميره. ثم ارتدى قميصه وظل كالشارد لدقيقة، ولكن كان عقله يعمل بشكل سريع ويظهر أمامه عدة شاشات هوائية وبيانات وإحداثيات عن حالته وهذا الألم الذي شعر به وكيف له أن يحدث، أمسك يدها وأجلسها

على مقعد وجلس بدوره على المقابل له على جانب المكتب واقترب بجذعه قائلًا باهتمام: لقد أحسست بشعور بشري أظهرته خلاياي البشرية من تلقاء نفسها وليس كالمشاعر التي استحضرها عمدًا وهذا يعني أنها تنسلخ من تحكم برمجتي الصناعية عليها وتتصرف تلقائيًا، أتعرفين.. لو كان ظهري غير مصاب وجئت إليك اليوم وهو سليم لم أكن لأشعر بهذا الألم وكنت ربما أذيتك، ولكن لشيء ما بداخلي دفعني للمجيء إلى بيتك بعد ما ألقيتي بخاتم خطبتنا، كان لذلك فائدتان، ثانيهما أني تأكدت أن لخلاياي نشاط ذاتي خفي وأولهما حمايتك مني.

ترقرقت عينيها بالدموع بلا رعشة كما كانتا متلازمتين في حضوره وأضافت: -والفائدة الثالثة أني كسرت الرهبة وبدأت أراك بشكل مختلف. رسم على شفتيه ابتسامة وأخرج من جيبه الخاتم وألبسها إياه بلطف مربتًا على كفها وقام ليرحل. حينها قالت بشيء من الضياع: ماذا الآن؟ ما الذي سنفعله؟ ما الذي ستفعله؟

قال وهو يفتح باب المكتب مولي لها ظهره: سأذهب أولًا إلى الصانع أصلح ظهري

-صانع! رددتها بحيرة وقلق ثم استطرت بسؤال منكه بالشك: هل حقًّا تثق بهذا الـ.. الصانع؟

ظل موليًّا لها ظهره وصمت لثوان ثم أدار وجهه لها قليلًا:

-إذا كنت مضطرًا

ثم انطلق مسرعًا في طريقه وكأنه أخذ منها نفسها، تيقنت أنه لا مفر من حبه حيًّا كان أم ميتًا، بشري الجوف أو لا، حقيق في شعوره أو برمجة.. لمست الخاتم وألقت بنفسها على المقعد فما حدث كان أقوى من صمودها

❋❋❋

طرف خيط

لم يكن بيت ألبرت النائي مُنار إلا بضوء عينيه أما المغيب صبغ السماء بلون أحمر قاتم كاتم على النفوس بشعور الرهبة إلا هو الذي بدأ يتذوق طعم إضافي.. طعم الفضول، وكأن الأحاسيس تنمو فيه ببطء من جديد، تلك الخلايا الدماغية البشرية تضفي انطباعها رغم إحاطتها بالآلات الصماء الجافة، أتراها يومًا ما تتحكم بها كليًّا ومن ذات نفسها بدون سماح مني؟ ثم كيف لم أشعر بالألم حينما واجهت قنبلة وشعرت به بضربة خفيفة؟ طرح سؤاله وهو يقيم محادثة إلكترونية مع الصانع، فقال الأخير:

-هناك بعض الملفات بشأن تركيبك مخفية رويدًا أظهر لك شيئًا فشيئًا مع اندماجك مع البشر وتقبلك لذاتك الجديدة واختبارك بشكل عام ونتائج كل ذلك تحدد لي ماذا أظهر لك وما الذي أؤجله إلى حين، الآن لابد أن تعرف أن جلدك الخارجي يجمع عدة مكونات شديدة الدقة في النسب والمقدار والمكون الذي كان له عامل أساسي في فصل الإحساس عن خلاياك البشرية هو جلد مدمج بجلدك

الأصلي... جلد الخلد العاري[1]، ولك أن تعلم أنه... قاطعه بآلية تشبه صوته وقال:

-أعرفه من قبل أن أصبح مصنوعًا، فهو كان من ضمن رسالتي للدكتوراه

فاستطرد الصانع:

-ولأن الانفجار تلقاه جلدك المركب كان جلد هذا الحيوان كدرع لم يوصل أي شيء لمستقبلاتك العصبية فلم تتلق خلاياك الحية أي إشارة، أما حينما نجم عن الانفجار تدمير طبقة الحماية فأي شيء يمسه الآن ستشعر به من فورك وسأعمل على إصلاح ذلك

-ومتى سيحين؟ كيف أصل إليك؟

-سأتولى هذا الأمر

-أنت تُحدث لي صيانة بشكل دوري ولكنني لا أتذكر أنني خرجت من غرفتي

-أنا لا أُسأَل روبوت ألبرت

(1) أو فأر الخلد العاري يشتهر بلقب الحيوان الأبشع في العالم، وذلك كونه عاريًا من أي فرو، يمتلك قدرة فائقة على احتمال أي نسبة من الألم بسبب افتقار جسمه إلى ناقلة عصبية مسئولة عن الاستشعار حتى إنه يستطيع البقاء في حالة عادية لو سكبت عليه أي مادة حارقة.

وقف بشيء من الحنق يشبه حنق السماء: -ألست بشرًا؟! أم أنك صدقت أنك إله! لقد كنت يومًا ما مثلك إن كنت نسيت والبشر يُسألون.

كان متأكدًا من أن هذا الصانع يحمل من البشر صفاتهم ومؤكد أن هيبته تنغص عليه اللحظة، انتظر تعليقه حتى اكتشف انه أنهى اتصاله الجوفي بصمت غضوب لكليهما، وكان ظنه في محله لقد كان الصانع يضم يديه ويشبك أصابعهما ويسند رأسه عليهما.. لماذا الغضب؟ ألم تكن مبهورًا بإنجازك الأول من نوعه؟ ألم تصر على قذفه في حياة البشر لتدرس كل طارئة وكل نتيجة محتملة كانت أم مفاجئة؟ نعم.. وقد بدأت المفاجآت!

أما ألبرت فتعمد توسعة دائرة ظهوره فترجل من سيارته بنشاط في نفس موقعها أمام مبني كلية امبريال استوقفه الكثير ليهنئه على العودة وانتظرته إميلي مبتسمة بصبر حتى تفرغ لها قائلًا: الطريق إليكِ يطول وإن بدا قصيرًا. قالت له بطيبة: وإن لم تصل لكنت أتيت إليك. أشرق وجهه واقمر وجهها كانعكاس الشمس عليه وكأنها بدأت في تقبله كما هو

-آدم عزيزي كيف حالك؟ قالها بود حقيقي.. أنت من أقرب الطلاب إليّ وكدت تتمكن من أن تكون لي صديق لولا أني ميت الآن، هكذا فكر وآدم يحتضنه بتأثر ويقول:

-أنا مررت بأيام لن أتمكن من وصفها بسبب الحادث وغيابك. ونظر إلى إميلي واستطرد: والمسئولية التي ألقيت إليّ بها يومها شعرت أنها أمانتك[1].

أكملت هي حديثه وقالت بامتنان:

-آدم منذ أن التقطني من بين يديك لم يتركني بسؤاله عن أحوالي ومتابعتي في المشفى هو وباقي الأصدقاء. قال ألبرت بصدق بالغ: لن أوفيك حقك ولم أخطئ إذ وثقت بك. وعلى ذكر الأصدقاء فقد أتى بعضهم

يقول جون:

-كنا ظننا أنك مت دكتور ألبرت هنيئًا لك الشفاء. ابتسم وفتح فمه ليرد ترحابه فانطلقت مارثا بصوت عالي وتأثر ملحوظ: آه دكتور ألبرت غير معقول لقد افتقدناك بشدة أنت بخير لا أصدق أنك أفضل مما كنت. كانت صاخبة تعبر عما بداخلها بلا حساب، ابتسم الجميع على تلقائيتها وشكرها هو بشدة، كانت الصحبة جميلة تذوق فيها شعور جديد وأصبحت متعة بالنسبة إليه أن يتناول المشاعر الطبيعية رويدًا وكأنه كلما اندمج أكثر كلما أُطعِمَ بشيء إضافي، ضحك وألقى النكات وظل خمستهم كل يدلو بدلوه من

(1) راجع رواية «كود آدم»

أخبار عن الفترة السابقة عداه الذي كان مستمعًا أغلب الوقت حتى تلقى فجأة تعليمات من مستشعراته وليس تنبيه داخلي اعتيادي، بل من النوع الذي يدرج في ملف «هام للغاية» إنها رائحة ما.. لا يشمها، ولكن استقبلها كرموز بداخل عقله، إن ملف القضية السرية يُفتح رغمًا عني، أَحَدَثَ خلل بداخلي أم ماذا الذي يحدث!!، ظل يتحدث إلى نفسه وبدا صامتًا للجميع يحافظ على ابتسامته وبداخله فوضى ملفات تفتح ولا شيء يستثيرها لتُفرض عليه، اختفت ابتسامته الأمر جلل والإحداثيات تزيد، أحماض.. بروتين حيواني.. جزيئات مـ..، جمدت عيناه وملامحه ولم يلمحه سوى إميلي التي شعرت بالقلق لم يكن في حسبانها أن يعطل كأي ألة فحاولت جذب انتباههم عنه وكأنها تشكل معه فريق بلا اتفاق مسبق وكانت نِعم العون ظلت تحكي موقف حدث لها في الطريق يوم أمس وتتحرك كثيرًا وهي تبتعد من جواره لتتبعها نظراتهم تلقائيًا أما هو فقد استغل اللحظات السريعة في تتبع ما تلتقطه مستشعراته، اقترب من كل واحد منهم ببطء، إميلي كانت بجانبه ولم تكن هي التي يُشار إليها بالاتهام، اقترب من الباقين التف حولهم متصنع إجراء اتصالًا هاتفيًّا وزاد الإنذار بداخله إنه يقترب من شخص مشتبه به، حلل الإشارات في معمله الداخلي الصغير، نتيجة التحليل تشبه تلك التي اختزنها من معطيات القضية، وجدت طرف خيط لسنا مضطرين لانتظار

حادث آخر كما كان يخشى مفتش تشارلي، توصل إلى المتهم بينهم وصمد رغم الصدمة

-مارثا! ، ماذا عنها ما الذي ترتاب بشأنها؟!

استأذنهم واجتذب إميلي سألها عدة أسئلة بخصوص مارثا جعلتها تشعر بالقلق

-ما الذي ترنو إليه ما الذي أنت مفوض بشأنه وما الشيء الذي يُقحمها فيه على أي حال، أحترم خصوصية حالتك ولا أسأل كثيرًا إلا أن الأمر الآن بدا يخصني.

-قصِّي عليَّ ما كانت تحكيه لك مارثا اليوم أو أمس

نظرت بلوم: ما كان لي أن أفشي أسرارًا و...

-كفي عن الهراء الأمر جلل وإن لتفاهات ما تتحدثون بشأنه قرائن لأحداث خطيرة فأطيعي أمري. كان لنبرته سيطرة تمكنت من إرادتها فأرختها وقصت له كيف كانت مارثا غاضبة من جون وكيف طلب منها السماح صباح اليوم حتى وعلى حين غرة قبّلها على وجنتها فلانت وصفحت عنه وانضما إلينا، أرأيت.. فقط أحداث تافهة. نظر بعبوسه إلى بعيد قائلًا بعمق: ليست توافه إميلي، حقًّا ليست كذلك.. لو تعلمين

***

المقر

واقفان في صمت محمل بثقل ما قد يقدمان عليه، ساكن ألبرت وكأنه صخرة منحوتة لا يتحرك فيه سوى خصلات شعره من هواء المحيط الأطلسي يرتدي بذلة الغوص كاملة ما عدا ذلك

الشيء الذي فرغ موضعه منه، والذي ينظر إليه ستيفن الآن بتساؤل ويقول:

-أواثق من عدم حاجتك لأنبوب الأكسجين؟. لم ينظر إليه ألبرت وكذلك لم يجيب، زفر ستيفن ليس فقط ضجرًا من تجاهله، ولكن لأنه تحت إمرة روبوت عضوي، شغل نفسه بضبط بذلة الغوص خاصته وعصاه لسانه إذ أفصح:

-لابد أن تعلم أنني لست تابعًا ولابد أن تطلعني على ما نحن مقبلون عليه على الأقل نعمل كفريق. قال ألبرت بدون أن يلتفت إليه:

-أمسكت طرف خيط أوصلني إلى مكان هنا وترقبته طوال الأسبوعين الماضيين حتى تأكدت من المقر.

-أين المقر؟

لم يجاوبه فأمسك بذراعه يجبره على مواجهته واستطرد بغيظ وفضول ملتحمين: أين ولماذا لم تغذي شبكة المعلومات لدينا بهذا قبل أن تطلب مني خوض هذه الرحلة معك وجاوبني وإلا.. وإلا..، لم يجد ما يهدده به لا على صعيد مهني كطرده كما يفعل مع من هم تحت يديه ولا تهديده بحياته فهل يُهدَد الآلي بشيء يقلق بشأنه!، فاكتفى بجبر نقص تهديده بنظرة وعيد بدت سخيفة وفي غير محلها تثير شفقة ألبرت إن كان يهتم، جاوبه ألبرت بهدوء ناظرا إليه:

-طرف خيط اسمه «جون» شخص التقطت من خلاله شك تخطى الثمان وسبعون في المائة فوضعته في ملف الرقابة الذكية وتابعته عن كثب حتى علمت ما نحلم بالعلم به وأكثر، ثم أشار إلى المحيط من فوق ذورقهما الأزرق الحديث واستطرد: هنا وفي قلب المحيط مقر المتوحشين. نظر ستيفن إلى ما يشير إليه.. وما تشير إليه يداه إلا المحيط الأزرق الواسع الممتد.

-لعلك تقصد المانش! المانش بالنسبة لهم ليس آمنا خاصة وجود السياحة في نفقه، أو كان من المفترض بنا أن نبحر من ميناء دوفر؟

جاوبه ألبرت باقتضاب:

-معايير السرية ملزمة، لابد من اتخاذ الطريق الأصعب لسرية

أطول ولوصول آمن.

ورغم فضوله الشديد لمزيد من الإيضاح إلا أنه كتمه واستبدله بما ظن أنه سيصدم ألبرت قائلًا بلهجة متحدية:

-فلتعلم أنني ما خالفت عهدنا ولم أخبر أحدًا عن رحلتي معك، ولأنك حددت لي وقت المهمة منذ بدايتها إلى الانتهاء منها فلقد أرسلت رسالة موقتة إلى المفتش تشارلي أخبره فيها بمحيط مكاني... ستصل إليه على هاتفه وفاكس المكتب فلتعلم ذلك فلن أكون بمفردي إن كان هناك خطأ ما سواء لم تقصده أو... قصدته.

لا تعبير جرى على وجهه مما ارتاب له ستيفن، ولكنه صمت فلقد ألقى المعلومة كوسيلة لحماية نفسه وبمرونة انتقل للتعاون معه ومن ثَم راجع ما كان قد بلغه به من خطوات قبل أن يرتدى قناعه:

-حسنًا سنغطس حتى نصل إلى نقطة ما وهناك ستتلقانا غاطسة صغيرة تنقلنا للنقطة المستهدفة. قال ألبرت في سرعة مع اقتراب ثانية الانطلاق:

-نعم وستحتفظ بأنبوبة الأكسجين معك حتى في الغاطسة فهي ليست مجهزة إلا لنقلنا فقط. أومأ له برأسه وقد وضع قناعه وتجهزا وأشار ألبرت بأصابعه أن واحد اثنان ثلاثة.. اقفز.

ظلا يسبحان بلا هوادة مسافة ليست بالقصيرة حتى ظهر كيان

يقتربان منه، غاطسة لا تسع إلا لفردين، فارتدا للسطح ليستقلاها وأزاح ستيفن قناعه وقال بسخرية يشوبها الضيق:

-بالطبع هذه الغاطسة لأجلي فأنت إن عبرت المانش والأطلسي بأكمله ما كنت لتشعر بذرة وهن. نظر له بجانب عينيه ولم يعلق فقط يضبط جلسته بداخل الغاطسة فتبعه مستطردًا بسخرية زالت وضيق عم: لماذا تصطحب معك بشري ذو حاجة وضعف إذن ألا يقلقك أنه فانٍ! لماذا لم تقم بالعملية بمفردك! قال ألبرت بصرامة وهو يجذبه إلى جانبه بقوة: هذا لكي أخرس الأفواه التي تئن حسرة على الشرطة ودورها فاقتطعت لكم دور كي تكفوا عن الصياح.

وفي نهاية جملته وضع له القناع بعنف على وجهه الذي اتسعت عيناه واستسلم بإذعان ثم أغمضها كمدًا وأشاح بوجهه، سبحت بهما الغاطسة قدر ما أعدت له من عمق ومسافة ونظر ستيفن إلى خريطته الإلكترونية ليبدأ في القلق: هذا وكأننا سنغادر حدود بريطانيا!، كتب جملته وبجانبها علامة تعجب ليقرأها ألبرت على الجهاز المعد للعمل تحت الماء فتلقى ستيفن الإجابة في أذنه، انتفض انتفاضة بسيطة وقد تفاجأ بصوت ألبرت وتذكر انه قد وضع له سماعات ليتواصل معه ولكن الأمر أثناء تجربته بدا غريبًا أن تسمع مرافقك تحت الماء ومرعبًا خاصة إن فم ألبرت لم يُفتح البتة:

-اقتربنا ولا تقلق بشأن الحدود. اكتفى بالصبر ومتابعة شق الماء الذي تحدثه الغاطسة بانسيابية ومتعة زالت، بل لم تحضر من الأساس، وصلا وقال ألبرت: -سنرجع مجددًا للغطس العادي وسنتركها حتى نرتد لها في العودة. تمتم ستيفن: إن كان هناك عودة. وغطسا مجددًا وألبرت يحدد العمق والاتجاه وستيفن كذيل سمكة لا ينفك عن اتباع منحنى جسدها حتى ظهر ما حنى رقبته دهشة وذهولًا، شيء عملاق مهول يسبح باستقامة وبطء واتزان كحوت محنط، انتابته خيفة خفية كما حوى المحيط في عمقه الظلام، إنها غواصة مهيبة!، روبوت بحري جبار يحوي وحوشًا بشرية، بدّل نظره بينها وبين ألبرت وتناقض مشهده بداخل المحيط بلا تنفس، توتر بشدة وكاد يختنق رغم أن أكسجينه مازال في وفرة استشعر موقفه الحرج وهو أضعف ما في هذا كله، نظر لألبرت بنظرة مفهومة لا تحتاج لأن يكتب.. أكان المقر غواصة في قلب المحيط الأطلسي في المياه الدولية.. فأشار ألبرت أن نعم، اقتربا بحرص وبطء أكثر من البطء الذي تجبرهما عليه المياه، غواصة اسطوانية ذات جناحان كالزعانف تعمد ألبرت أن يأخذه لمنطقة محددة منها وقال في أذنه: انتبه لمجال السونار لا نريد للنبضات خاصتها التقاطنا. رغم أن النبضات الصوتية ترتد لتخبر الغواصة بوجود جسم كبير نسبيًا إلا أن التقاطها لجسميهما احتمال ضعيف، كتب له في الجهاز: ماذا عن

التقاط الرادار؟ أجابه: أنه يعمل فقط على السطح، كل ما يشغلنا السونار. سكنا تمامًا وانتظر ستيفن إفصاحه عن أول خطوة ويالیته ما تلقاها

-لدي خطة واحدة للدخول ولابد أن تنجح. عبس تحت قناعه وكتب.. هل جننت لا يمكننا فالطاقم قد يكون كبيرًا بالداخل ولسنا مسلحين كما يجب

-أنت مضطر للدخول أكثر مني فأنبوب حياتك أو أكسجينك سيقارب على الانتهاء

لم يكن في موقف يحسد عليه وقد استسلم تمامًا للواقع المرير، تمتم بداخل عقله أن تبًا للصانع يلقي بنا في المهالك ليُنسب له الفضل والإنجاز، كان يظن أن ألبرت يطلعه على مقرهم للاستقصاء لعلها سفينة أو حتى جزيرة لكن.. غواصة! كتب:

يستحيل دخول أو خروج أحد من غواصة وهي تحت الماء أتعلم ذلك؟ ابتسم ألبرت بمكر ولم يعلق، بل اقترب من جسم الغواصة ليتمكن من استجلاب معلومات بشأنها كشف الحرارة ومنسوب الماء بداخل خزاناتها ونظامها الملاحي وقال له: الغواصة ليست على عمق كبير إذن خزانات الثقل ليست مملوءة بالكامل وزعانفها مستقرة، أراهم لا ينوون إنزالها لعمق أكبر حتى أنها لا تطفو.. فقط

مستقرة لعلهم سيظلون هكذا أو سيرتفعون للسطح قريبًا. كتب له ستيفن: إن كانت ذات دفع لا هوائي فسنظل نطوف حولها شهر على الأقل! حرك ألبرت رأسه نفيًا: من حسن حظنا أنها لم تزود بالدفع اللاهوائي AIP، محركها ديزل فهم مضطرون كل أربعة أيام تقريبًا للارتفاع حتى يخرج برجها على سطح الماء ويستجلب الهواء للبطارية، وأنا أترقبها وعلى حسب تقديري فاليوم سيرتفع برجها وسنتمكن من الدخول إلا أني لا أريد تضييع مزيدًا من الوقت. وأمسك بفتحة خزانها الخلفي.. كلانا آليين وأعرف كيف أتعامل مع بني جنسي، تعجب ستيفن: أهناك مدخل من خزان ماءها إلى قلبها حيث الطاقم والسكان المجهولين؟! استنكر بحيرة: ألا تعلم أنها مدعمة بالتيتانيوم وبالداخل بيئة محصنة بالكامل دفء وكهرباء و... قاطعه ألبرت: وتحليل كهربائي للمياه وفصل جزيئاتها كيميائيًّا ليتوفر لهم الأكسجين وماء شرب يعالج من المحيط وحتى مخلفاتهم تكبس وتصرف ولكن لا تشير إليّ باستخدام مخرج المخلفات فأنا روبوت بمرجعية بشرية ولا أقبل بذلك ولا تقلق فخطتي لن تصطدم بكل هذا بل هي بسيطة للغاية. تركه يعمل وسبح لمسافة آمنة تحسبًّا لأي خطأ يقع من الروبوت الذي يعمل كقطعة آلية معدة للمهام الصعبة يستثمر كل قواه وما لديه من إمكانيات ليفتح صمام

صهريج الغواصة وظل في محاولاته بلا يأس هذا الذي طال ستيفن وبدأ يفكر في الهروب والرجوع أدراجه إلى الغاطسة، وبالفعل سبح يفكر: هذا روبوت مختل حتمًا ففراغ خزانات الغواصة ما هو إلا جزء بين هيكليها ولن يسعه اختراقه للداخل! وقبل أن يضع خطة الانسحاب اتسعت عيناه وابتعد تلقائيًّا عن الغواصة التي مالت إلى الأسفل بمقدمتها ومؤخرتها ترتفع ببطء مخيف، إذن فلقد فُتح الخزان الخلفي إما بفعله أو من الداخل وفي كلتا الحالتين من الممكن أن يكون الروبوت دُمر تمامًا وكما توقع ستيفن لقد استطاع ألبرت فتح صمام الحاوية واندفع الماء واندفع هو ضد تيارها في مشهد غريب على أي عين كانت متخصصة أم لم تكن، وشرع ستيفن في الانسحاب أما الغواصة ثبتت لدقيقة على وضعها المائل ثم ما لبثت إلا أنها بدأت في الارتفاع بالمقدمة وستيفن يبتعد حينما لم يجد لألبرت أثرًا، وارتفعت بمقدمتها أكثر أي أنهم يفرغون حاوية الماء الأمامية تهيئة للارتفاع على السطح، لقد قرروا الخروج من العمق لكشف ما حدث من خلل.. يا للمصيبة! لقد كُتب على المهمة الفشل قبل أن تبدأ، تجمد مكانه للصوت الذي اخترق أذنه:

-ارجع فقد نجحت الخطة... سنسبح جانبها صعودًا. كتب له ستيفن كيف فعلتها ولماذا لم تفتح الصهريج الأمامي من البداية

لترتفع؟ فأجابه: إن أنا فتحت الأمامي فلن تصعد الغواصة للسطح بنفس السرعة المطلوبة لكن جعلتهم هم يرفعونها بمعداتهم الداخلية.. بواسطة خلل ما أحدثه في مؤخرتها فيضطرون للارتفاع بالمقدمة ومن ثَم للسطح لإرسال أفراد من الطاقم للكشف، ونحن ما دورنا؟.. تساءل ستيفن فأجابه بالمطلوب.. وبدقة.

صخب وأوامر بداخل برج الغواصة حيث التحكم والمراقبة:

-اسحب اسحب هيا هيا نعم الصهريج على وشك أن يفرغ ضخ الهواء...

قال «ذو الشارب» بصرامة:

-أنتما... فور ما يُرفع البرج فوق سطح الماء تصعدان وتسجلا أي ملاحظات وراقبا صمام الخزان الخلفي بدقة وأي عطل إن لم تكتشفانه سوف أضعكما بداخله أتفهمان. كان تهديده مزعجًا دفعهما للإسراع بارتداء بذلات الغطس وسط ضجيج مكتوم لماء المحيط التي تحتج على شقها من برج الغواصة وكأن البر والبحر يرفضها هي ومن بداخلها، التف ذو الشارب مدير طاقم عمال الغواصة إلى زميله وقال: لماذا أنت قلق من الصعود الاضطراري ألم نكن على أي حال سنصعد للشحن. جاوبه حائرًا: لا أطمئن لذلك. قال له

بعصبية: ألم ترى كيف مالت بنا إنها صيانة طارئة يا رجل. أومأ برأسه مقتنعًا بلا تعليق وانصرفا ليراقبا إحداثيات الصعود ولم ينصرف من صدر الرجل قلق لا يعلم مبعثه!

شق البرج الماء كفم يشهق طلبًا في المدد وأحدث جلبة تذهب بالنفس إلى حب المحيط وفي هذه اللحظة استقر جسدان كعلقتان فوق جسم الغواصة وتحديدًا على سطحها من زاوية لم يختارها ألبرت عبثًا وفور ما فُتح مدخل البرج وخرج منه شخص يليه آخر وكأنهما شقا قبورهما كانت يده الحديدية تتلقفهما لم يتمكنا حتى من إبداء مشاعر الصدمة أو الذهول، وأصبح لهما قبر جديد ويالحظ من كان قبره المحيط!، لم يغفل قبل أن يقبرهما أن يجردهما من أقنعتهما وما يميز مظهرهما وبدقة ظل كامن لمدة يحسبها جيدًا لفردين ذهبا ليستكشفا عطل ما. قال ستيفن بحذر: لماذا تحتفظ بهذا الرجل؟، كان يمسك بأحدهما لا يفلته ثم أخذه كدمية بالية واقترب من مؤخرة الغواصة التي مازالت مروحتها تعمل وحشر جسد الرجل فيها بقوة أفزعت ستيفن وأدخلت الرعب في نفسه، لم يعد للرجل الملقى بعدها حياة ثم انطلق كالصاروخ إلى مدخل البحارة يصرخ بصوت جهوري.. أدركونا زميلي في خطر النجدة المروحة المروحة.. حدد مكان الإغاثة مباشرة ليذهبوا تلقائيًّا لمؤخرة الغواصة ومن ثَم

سحب ستيفن من ذراعه بسرعة ليختبئا خلف صارية شفط الهواء والبحارة يخرجون جميعهم من مخرج القيادة للإنقاذ وفور ما أخذوا جهة اليمين لزما هما جهة اليسار والتصقا بالصارية ومنها وبنفس سرعة البحارة في الاتجاه المعاكس تمددت خطواتهما إلى صارية الناظور ومنها إلى صارية الاتصالات حتى وصلا للمدخل الذي للتو خرج منه البحارة ومن ثم أشار ألبرت لستيفن.. هيا لندخل عرين الأسد.. بل لفك القرش.

***

سرقة

ضربت والدة مارثا وجهها تقول بصوت صارخ وسط العمال في المصنع: ما الذي تتفوه به يا هذا كيف تختفي الشحنة؟ قال المفوض بشئون الأعمال بين مصنعها وبين منظمة حقوق الحيوان في بريطانيا: اخفضي صوتك سيدتي إن الخسارة تشملنا وليست تمسك فقط. اتسعت عينيها بحسرة وذهول: و.. ولكن كيف لقد وضعت الكثير من رأس مالي أفتقنعني أنه ذهب سدى!، ثم احتد صوتها وقالت آمرة: لابد أن تكثفوا البحث وتمسكوا بالمسئولين عن السرقة.

تنهد بفقدان صبر وبلهجة من ينهي الحوار: نعم بالطبع البحث جاري عنهم وعن أهدافهم.

صرخت وهي تلوح بذراعها في وجهه: لا شأن لي بأهدافهم الخبيثة لا يعنيني أنا أريد إما نقودي أو شحنتي بأي شكل أتفهم. ظل واقفًا مكانه غير أن نظراته الصارمة هي التي امتدت إليها ولحقتها نبرته المماثلة: أفضل لك تمالك نفسك سيدتي ولابد أن تعلمي أنه إن لم نجد الشحنة فلا أموال لك عند الخزينة فالجميع خاسرون.

ثم رحل فور ما أطلق الحقيقة في وجهها كالقنبلة وهي بدلًا من

أن تنفجر كرد فعل متوقع اختل توازنها فاقترب منها بعض الموظفون ليمسكوا بيديها قبل أن تقع ويجلسونها على المقعد، التقطت أنفاسها المتتابعة بوهن وشربت جرعة ماء وأجرت اتصالًا بيد مرتجفة تقول بلهفة: من فضلك صليني بالسيد ماركس المحامي، نعم على الفور، انتظرت قليلًا ثم قالت تستنجد: ماركس أدركني رأس مالي يضيع.. نعم خاص بالمصنع.. حسنًا سأشرح لك آه.. حسنًا نعم أنا هادئة الآن أشكرك. ازدردت لعابها: كنت اتفقت مع مختصين على شحنة مقننة بقوانين منظمة الحيوان تلك وكنت أنوي طبقًا لأبحاث مضمونة استخدامهم في التجميل وفجأة الشحنة سُرقت فلا أنا حصلت عليها ولا على الأموال ماذا أفعل؟، لا لا أدري وكيف لي أن أعلم بتفاصيل الحراسة عندهم.. حسنًا هل ستبدأ اليوم؟، لا لا تقل هذا أنا سأجن لا يمكنك التأجيل ماركس.. وهل قضايا هؤلاء أهم مني؟، أسبقية!! تقول أسبقية! هل هو طابور مدرسة ماركس!، أنهت المكالمة بلوم وهي تسبه.. تبًّا لك ماركس تبًّا لك

***

دخلا مسرعين يلتهما سلم مدخل البحارة الحلزوني وصوت ذو الشارب على السطح يبتعد كلما هبطا وهو يقول.. ابحثوا عن الآخر ألقوا العوامات لعله يلتقط أحدها.

فهم ستيفن الخطة بشكل أوضح وأعجب بها رغم وحشيتها إلا أنه قصاص لفئة إن لم تفنيها فنى الأمن من انجلترا بالكامل فلقد ألقى بأحد الغطاسين في المروحة وانتحل شخصية الآخر الذي أغرقه وصرخ فيهم أن أدركونا ووجههم للمروحة وحينما لم يجدوا الآخر فهموا تلقائيا أنه انزلق وهو يحاول إنقاذ زميله ولم يضع قناع الأكسجين من بعد ما استغاث بهم، منها تخلص من الفردين دونما أي شك يُثار، ومنها أفرغ المدخل من البحارة ليتمكنا من الدخول ومنها حادث مقنع منطقي وارد الحدوث، وبدلًا من أن يشغلهم بالعطل الأساسي الذي صعدا لأجله على السطح أشغلهم أيضًا بهذا الحادث

انزوى به ألبرت في زاوية السلم وبسرعة البرق أخرج من ظهره حقيبة مضغوطة من مادة عازلة فيها بذلتين أنيقتين بدءا في الارتداء بحنكة والتصقا بالحائط وتسلَّلا بحرص.. عين ألبرت تمسح المنطقة وتحركا بشكل يبدو طبيعي في رواق على جانبيه غرف صغيرة والسقف منخفض يرتفع فوق الرأس بمقدار رأس، كانت الأروقة ضيقة والسقف ملئ بمعدات وخراطيم وأنابيب كثيرة، توقفا عند ركن يشبه الاستعلامات وبه الميكروفون همس ستيفن: أين الجميع؟

جاوبه بهمس مثله: أنهم مجتمعون في بهو الغواصة أستشعر حرارتهم على بُعد أمتار. نظر حوله حتى وجد دورة مياه صغيرة على يساره فأمسك بالميكروفون وصمت لحظات ثم: السيد «ستانهوب» رجاءً حضور السيد «جون ستانهوب» إلى هنا.. آخر رواق البهو بجوار دورة المياه، برجاء الحضور للأهمية. جاء جون وعلى وجهه أثر ضحكة كان قد أنهاها مع الرفقة بالداخل نظر فوجد الرجلان التف ألبرت ليواجهه فتسمر في موضعه وارتبك عقله لوهلة.. أنا أعرف هذا الرجل، ولكن ولأنه من غير المنطقي الجمع بين معيد في كليته وهوايته الخفية المشبوهة بداخل مقر شديد الخطورة ظل عقله على ارتباكه لأطول مما ينبغي فارغًا فاه وعينيه متسعتان مثبتتان على وجه ألبرت الصارم والذي لم يمهله أكثر مما أمهله فسحبه إلى دورة المياه بشكل فجائي وعنيف أربك ستيفن الذي لحقهما وأفاق جون الذي ردد كلمة مستحيل أربع مرات، أغلق الباب بقدمه على ثلاثتهم ولم يكن يسعهم المكان إلا بالكاد، ألصقه في الحائط بعنف وصندوق الحوض المعدني مغروس في فخذه وظهره مائل، ازدرد لعابه.. كـ كيف ولماذا ما الذي يحدث؟، أسئلة متفرقة تساقطت من عقله الحائر على لسانه الذي كاد يُشل وألبرت يقول بصوت صرامته مخيفة:

-لقد علمت عنك كل شيء أيها الشاذ المنحرف وإن كنت لا تريد فضيحة توقف مستقبلك أدخلني وسط الأوغاد. تلجلج بلا

تفوه بشيء يُفهم، سحبه ثم أعاد ضربه في الحائط، ولكن بقوة أكبر تأوه منها ونظر لستيفن وكأنه يستنجد برفيق عدوه! فلم يجد في عينه سوى الوعيد فسأل بصوت مرتجف: كيف وصلت إلى هنا وما شأنك دكتور ألبرت بما نصنع!

قال بحسم وهو مقطب حاجبيه: سؤال آخر ولن تنجو مما سأفعله بك جون، أدخلني بينهم وحسب. تمكن الخوف منه وقال باستنكار: بماذا سأقدمك لهم. نظر له ستيفن بقسوة قائلًا: عرفنا على أننا مولين جدد، رجال أعمال بنفس ميولهم.

أمسك جون بيد ألبرت التي ثقلت على صدره فوجدها أقوى مما يجب أن تكون وقال: وأين كنت أخبأكما إذن طوال الأيام السابقة هاه؟ ستُكشفان حتمًا.

أجابه ألبرت بلهجة آمرة وهو ينهي اللقاء الخانق: ستقول إننا كنا في ريبة من أمرنا واشطرتنا أن نحتفظ بسريتنا في الغواصة حتى نطمئن للميول الموحدة بيننا وبينكم حتى نقوم بالانضمام والتمويل الوفير.

-ولماذا أقول هذا أكنت أخبئ فأر في جحر! كاميرات المراقبة ستكشف كذبي وكذبكما.

لكمه في جنبه بقوة وتجنب الوجه حتى لا يخرج إليهم وأثر

الضرب بادٍ عليه يثير الشك، تأوه فكتم ستيفن فمه حتى يرد صدى التأوه في جوفه ثم قال ألبرت بنظرة نارية:

لا يوجد كاميرات مراقبة في المكان أيها الوغد. عبس جون متعجبًّا فلم يجاوبه بما لن يتوقعه وأداره ليواجه المرآة: اضبط هيئتك واخرج إليهم. حاول جون التماسك رغم عدم فهمه للأمر برمته وقال وهو يضبط هندامه بصوت مازال يحتفظ برجفة المفاجأة: أيًّا ما يكن ما تخططان له فلن يفلح إن هؤلاء ذوي ثراء فاحش فلن يكترثوا لعرضكما الضئيل مقارنة بهم على أي حال

تبادلا النظرات ألبرت وستيفن وقال الأخير آمرًا بعد بضع ثوان: حسنًا قل لهم أن لدينا ثغر في الإعلام والبؤر الترويجية وأننا لقادرون على نشر المبتغى لهم على أرفع مستوى لم يحلموا به ولنمكننَّهم من أعلى درجات التوجيه في انجلترا وكان لابد لنا من معاصرة الأفراد بأنفسنا لخطورة ما سنقدمه لهم، هل وعيت ما قلته لك يا هذا؟ ثم نظر ستيفن لألبرت بتلقائية وكأنه يريد طمأنة حول ما قاله وقد حصل عليها بنظرة موافقة من ألبرت

سبقهما جون إلى الداخل ولم يكد يختفي عن ناظريهما حتى قال ستيفن بقلق:

-وكيف لنا أن نعلم بما سيخبرهم به قد يوشي بنا ولن نكون

بأحسن حالًا من سمكة بلامة بين فكي القرش! ، خرجا من دورة المياه وقال ألبرت وهو ينظر إليه بثقة وصرامة: إذن لا تنس أن البلامة سامة كما سنكون نحن.

-أنا معك أينما تكون وأذنك هي أذني أعلم ما تتفوه به فاحذر، المكان ملغم بالشرطة فلا تفكر في التملص مما أمرتك به. عبس ستيفن بعدم فهم فأردف ألبرت: لم تكن جملتي الأخيرة موجهه لك، ولكني زرعت فيه ما أستطيع من خلاله محادثته وسماعه كما فعلت معك تحت الماء.

لابد أن هذا الـ جون قد ارتجف وهو في طريقه إليهم حتى كاد يتعثر في قدميه

وبالفعل كاد يفضح جون أمرهما لولا خوفه مما أبلغه به ألبرت فدخل إلى الجمع المقيت وحاول قدر ما يمكنه أن يمهد لفعلته التي لم يفعلها وألبرت يتابع حتى إن واجهه سؤال من أحدهم.. يلهمه بالإجابة

-وما يضمن لنا أنهما مخلصان ألا تدري أننا لا نُدخل أحدًا بيننا إلا بعد مروره بطقوسنا؟ لجُّم جون لم يستطع الرد فأجابه ألبرت عن بعد:

قل له أننا مستعدان لإثبات إخلاصنا على الفور. وترددت الجملة على لسانين أحدهما قالها كنجدة والآخر قالها بشيء من الفزع: نثبت إخلاصنا!! لا تورطني فيما لا طاقة لي به روبوت ألبرت.

قالها ستيفن بوجل فجاوبه بإشارة أن اتبعني، وجون مع أقرانه في حوار مشحون بالتوبيخ يهدأ تارة ويثور أخرى، مروا بالمطبخ قبل أن يدخلا فالتقطت أنف ستيفن ما انكمشت له ملامحه تقززًا، بقايا حيوانات مقطعة معلقة في سلاسل معدنية مثبتة بالسقف شيء يشبه الثعلب مقطوع نصفه السفلي بعشوائية وجزء من فكه وقد جحظت عينا الحيوان وثبتتا على جحوظهما، ولم يتعجبا من وجود الجزء العلوي من سلحفاة «الكانتور» رغم صعوبة اصطيادها وتهديد الانقراض الملاحق لها! وأوعية من جماجم الحيوانات مرصوصة على الطاولة لا يعلم كنه محتواها إلا أنها تبدو نيئة أو نصف مطهوة، لفت انتباههما اللوحة الكبيرة التي لم يملأ فراغها سوى علامة عجيبة وكأنها شعار.. كان رمز اللانهائية كرسمة كبيرة محفورة وفراغها محشو بأشياء تبدو مجففة، في حروف العلامة الداخلية نُسقت أسنان بشكل منظم كأنه فك مفتوح ويغلق من اليسار وكذلك من اليمين ويلتقيا في المنتصف، لمس ألبرت محتويات اللوحة الغريبة ليتمكن بمستقبلاته تحليل موادها ولم يكن ما أُحشي به علامة اللانهائية سوى أجزاء مجففة من أجهزة تناسلية لعدة أجناس من الكائنات والأسنان الراسمة لشكل الفك كانت بشرية، وفي ثواني ربط عقله ما بين معطياته عن هذه الفئة وبين الرمز فلم يجد سوى تفسير واحد (النسل للأكل) كل ما يتم تناسله على الأرض يصلح للأكل وأن

البشر يحق لهم أكل كل شيء وجد عليها ولا نهائية لما يجوز تناوله فكل شيء للبشر! وقفا يدرسان ما يرونه كل بعقليته والخاطرة المشتركة بينهما هي استنكار محض، أفبعد أن تكون الغواصات إما لغرض عسكري، أو بحثي، أو فحص وصيانة بحرية أو حتى للسياحة أينجسونها الآن بابتداع مهمة كتلك! تأملوهم.. مجموعة من الأفراد بعضهم شاذ بالكامل متحد مع سلوكه وهوايته لا يرتدي شيئا على الإطلاق وبعضهم متلحف بسترة من جلود حيوانات محاكة ورغم أنهم ذوي شهية مفتوحة إلا أن أغلبهم هزيل وكأنهم يأكلون ما يغلق شهيتهم ويغير من طبيعة أجسادهم إلى ما لا يحمد عقباه كذلك ظاهر على جلود بعضهم بقع ذات لون داكن، إن ما يفعلونه مخالف للطبيعة وكذلك طبيعتهم بدأت تخالف الهيئة السوية ولربما قدرتهم على البقاء بالضبط كمدمني المخدرات والخمور يفرطون في كل ما يملكون من كنوز لأجل متعة لحظية!

بعضهم يجتمع حول منضدة يتوسطهم «جون» إذن هؤلاء الأعلى منزلة وبيدهم القرار والآخرون متفرقون إلا أنهم انتبهوا جميعًا لهذان اللذان يقفان وكأنهما ينتظرا الإذن بالدخول حل الصمت الذي قطعه جون بارتباك وابتسامة سمجة: ها هما لقد حضرا. ابتسما ابتسامة خفيفة وانهمك المتفرقون فيما كانوا يفعلونه إلا أهل المنضدة كانوا يتفحصونهم يغلب عليهم الشك عدا القليل

وقال أحدهم بترحاب: أهلًا بالعمل الجديد، وصلنا أخبار أنكما ستتعاونان معنا لمزيد من الانتشار والانتصار. لَضَم أحد المشككين كلام رفيقه بصوته الرفيع وقال بنبرة اتهامية: لا تعاون قبل الإثبات اعطونا دليلًا على أنكما منا لنكن منكم. قال ألبرت بثقة تسرب منها الصدق إلى قلوب الكثير: نحن في أعلى درجات الأخوية إن كنتم تعلمون، نحن ضد القيود ولابد للعالم من أن يحترم رغباتنا ويعترف بها قانونًا. قال العاري على اليسار وهو يضع قدمًا على الأخرى مضطجعًا ببذاءة وتثقل الحروف لسانه: أعطنا مثالًا على أنك في أعلى درجات الأخوية.. أتعلم من هو الذي يعلونا؟ من يأكل حيوانًا نيئا، بل من ينهشه وهو ذو حياة يتفجر الدم في جوفه ساخنًا وتخرج روحه فيه مباشرة. غمزه من بجانبه وقال: أتعلم.. مثل «الوحش». قال جون ملطفًا: يقصد مثل قائد الأخوية يطلقون عليه «الوحش» هو ونفر قليل منا يستطيع فعل ذلك. عبس بعضهم لعدم انبهار ألبرت لما قالوه ولم ينتبهوا لستيفن لأنه بطبيعته قد اندهش وانصب تركيزهم على ألبرت الذي قال: أهذا الذي ستختبروننا فيه أن نفعل مثلما يفعل «الوحش»؟

ضحك البعض وقال فرد منهم: لا بالطبع إن الانضمام لنا يسير فقط نجعل من يريد الانضمام أن يتناول شيئا يصعب على العامة تناوله لنجد فيه مصداقية وأرض خصبة لنتكاثر ويكون لنا صوت

في المجتمع على إثره نحصل على ترخيص فقط لا غير، نحن أبسط مما يكون. بدا بالفعل لألبرت أنهم كذلك، بعض الأشخاص لهم ميول شاذة جمعوا أنفسهم وصنعوا أخوية مهووسة، هؤلاء لا يشبهون أفراد الحوادث الوحشية في شوارع انجلترا ولا يشبهون فتى المترو! كان لآلية ألبرت فضل كبير في هذه اللحظة فأي شيء لن يقف في طريقه ليثبت أنه منهم فلا يتملكه شعور بالنفور ولا غيره ولابد في نفس الوقت أن يفعل شيئا يبهرهم ليصرفوا انتباههم عن ستيفن فقال بلا اكتراث: حسنًا تريد أن أتناول شيئًا لا يتناوله العامة، لم أكن أريد ان أفزعكم لكن.. وفجأة انقض على ذراع جون الجالس بجواره بقوة صرخ لها بصوت جهوري وارتد الجالسين للخلف من الصدمة وبعضهم هب واقفًا فلقد قضم قضمه اشتملت على قطعة من سترته محشوة بقطعة من جلده المنكهه بطبقة من اللحم! وسال دمه على فم ألبرت وصمت الجميع والتفوا حول المنضدة مائلة رؤوسهم يستكشفون أحقًّا قضم من ذراعه يراقبون فمه الذي مضغ القماش بالجلد واللحم وابتلعهم ولعق شفتيه التي اكتسبت لونًا قرمزيًّا زادته جمالًا ووحشية، ابتدأهم ألبرت بابتسامة بسيطة متسائلًا: هل انضممنا إليكم الآن؟

نظروا لبعضهم وقال المشكك: الذي فعلته أقرب للجريمة يا رجل.

رفع ألبرت حاجبيه تعجبًا وضحك ضحكة قصيرة: جريمة! أنا لم أزهق روحًا على أي حال لقد تذوقته فحسب أما وحشكم فيزهق أرواح الكائنات تشعر هي بخروج روحها وهو يشعر باللذة. حل الصمت مجددًا إلا من أنين جون الذي أخذه أحد رفقائه بعيدًا يحاول مداواته ولم يمنع ذلك البعض من إبداء إعجابهم.. مرحى إنكما خارقان. نجح في غض طرفهم عن ستيفن ومنطقيًّا توقعوا أنه يشبهه وقال بتساؤل وقد قام واقفًا يواجههم مختبرًا:

-خارقان! أرى أنكم من المفترض تخطيتم ما فعلته وصبيكم الذي أكل أحشاء صاحبه على المترو والأجزاء البشرية المقطعة أليست هذه جريمة أكبر مما فعلت أنا؟، قال المتشكك الذي زال شكه وحل محله الغيرة:

-إن هؤلاء لا يمتون إلينا بصلة إنهم منشقون مارقون. ثم ألحقه بنظرة شك أقوى مما سبق: أم انكم منهم على ما يبدو. قال وهو يشد قامته وينظر بنظرة مطمئنة مباشرة في عين المتشكك: لو كنا منهم لرأيتنا ضعاف البنية شاحبين الوجه شاردي الملامح واسأل أي طبيب ليخبرك، أليس كذلك يا دكتور جون؟، أومأ برأسه جون دون أن ينبس ببنت شفه فاستطرد ألبرت: والآن أريد التواصل مع قائد الأخوية لترتيب المهام. أشاروا إليه بمكان غرفته وانفض كل منهم لشأنه غير آبه بهما وحينها انزوى ألبرت وتقيأ ما تناوله

كالعادة، بعدها تجولا في المكان بأريحية وانتظرا حتى اندمج الجميع في ملهياتهم ما بين رقص ولهو بأوراق اللعب وعيونهم تراقبهما بين الفينة والأخرى، أما جون فلم يكتفوا بألمه بل توعدوه بالعقاب على هذه الفعلة المتهورة أن يُدخل عليهم أغراب قبل أن يتم التعرف عليهم على الأرض، استند ألبرت على أحد الحوائط وقال لستيفن الذي كان يخشى فتح فمه حتى لا ينفجر القيء في وجه الناس: الآن لابد من إشغالهم بشيء حتى نتمكن من فتح غرفة قائدهم الوحش.

-هذا الرجل لابد وأنه أسوأهم

قالها ستيفن وهو يفكر:

-لو أننا نجد وسيلة لتحرير هذا «اللوريس» في المطبخ لنُحدث شيء من الإرباك ونتمكن من التسلل ولكن كيف؟. أعجب ألبرت بالفكرة ثم بخبث قال: أنسيت أنك في صحبة روبوت متطور. نظر له بتساؤل فاستطرد: حيوان اللوريس له لدغة سامة فإن كانوا يعلمون ذلك فسوف يحرصون على أنفسهم ولن يتمكنوا من إمساكه قبل تسع دقائق على الأقل وإن كانوا لا يعلمون فسوف يلدغ أحدهم وينشغلوا به وفي كلتا الحالتين نحن الفائزون. وفجأة بدأ في التمايل وسط اندهاش ستيفن الذي قال: ماذا دهاك ماذا تفعل؟، اندمج مع الموسيقى الصاخبة وكان يقترب شيئًا فشيئًا من مكان التجمع ويحث

ستيفن بعينيه على الرقص فقال وهو يضحك: حسنًا لا تستفزني لا أستطيع الرقص، أخبرني ماذا وراءك ما بغيتك من الإلهاء بالرقص؟

-إن كنت تريد فعل شيء خفي فتوحد مع المكان وأهله ثم بروية افعل فعلتك كن جزء من المنظومة حتى لا تتميز بشيء يلفت الانتباه. أطاعه وتمايل فالتف ألبرت بحركة راقصة جذابة ورجع ليواجهه ضاحكًا: كف عن الرقص.. اتضح أنه لا يناسبك سيعتبرونك عرضًا كوميديًّا وستلفت الأنظار. زفر ستيفن وهو يبتسم ويتوقف واكتفى بطرقعة أصابعه مع الإيقاع غير المحبب وفي هذه الأثناء كان ألبرت يدس في جيبه شيء ما على إثره سبّه: تبًّا لك من روبوت. ضحك ألبرت وقال: حينما تندمج بالداخل ضع الجيفة هذه هناك. ثم سلط نظره على قفص اللوريس وفعّل الليزر الخاص به فانفتح قفل القفص فحرك اللوريس أنفه يشتم الباب وأخرج رأسه بحرص ومدها ببطء ومن ثم أخرج يده ذات الأصابع فانتبه الطاه وبحذر اقترب ليمسكه، فكر ألبرت بسرعة.. أن اللوريس بطبيعته بطيء والطاه أسرع منه سيئد الفكرة قبل بزوغها وهنا أصدر صوت قرقعة عالية لا تصدر من بشر وكأنه صوت شيء معدني يقع أو صوت يصدر من لعبة نارية صغيرة وعلى إثرها التفت الكثير لا يعرفون مصدر الصوت والأهم أنه أفزع الحيوان وفي لحظة انتباه الطاه بعيدًا كان قد تفلت من مكمنه، أخرج ستيفن ما بحوزته

من طعام يشتهيه وألقاه في خفية تحركت معها حاسته وذهب تجاه ما يلتقطه أنفه يحركه حرمانه وجوعه وحينها قال ستيفن لينبههم متفاجئا: آآه ما هذا. فصاح الطاه.. أمسكوا الحيوان. فقال ستيفن سأبحث عن شيء لأمسكه وانسحب من بينهم وهم في الأساس لم ينتبهوا لا له ولا لمقولته، ولكن كان لابد أن يُتقن، تحركا بخفة وصوت الجمع هناك يصل لآذانهم: امسكه امسكه، بل اتركه لي سآكله حيًّا لا لا لا انتبهوا إنه سام حلق عليه من هنا لالا يا أحمق ابتعد من هنا..

في حين كانا أمام غرفة القائد الوحش، مد يده ألبرت ليفتح حتى صدر صوت أثقلهما خيبة وأسقطهما من أعلى برج الانتصار إلى أسفل عمق اليأس: أدخل بصمة الصوت بعد الصفارة!!

خفق قلب ستيفن بشدة وتسارعت أنفاسه وعبس ألبرت ثم قال الأول بهمس محبط: ماذا سنفعل؟، احتد عبوس ألبرت وما كان عبوسه عبثًا إذ أن مصيرهما كان في كل الاحتمالات يُكبل بالفشل ثم ما لبث أن لمعت عيناه فاستحثه ستيفن وقال بعصبية: أدركنا ماذا لديك؟ أهناك مخرج لنرحل؟؟

-لن نرحل بل سندخل

-نحن لا نعلم صوت قائدهم ذاك الوحش حتى تقلده وإن

قلدته فهذا جهاز بصمة حساس لن يقبل بصوت إلا إن خرج من صاحبه. ظل يتلفت حوله تجاه الرجال وأمسك بذراع ألبرت وقال بسرعة وفزع: تصرف يارجل كف عن العبث لماذا تقف ساكنًا هكذا لقد مر من التسع دقائق المقيتة خاصتك تلك أربعة أو خمسه.. سنُكشف

-ستة... ستة وثانيتان... قالها ألبرت ببرود وشرود أصاب ستيفن بالغضب الذي التحم بخوفه فجعلا من وجهه بركان محتقن أوشك على الانفجار أما ألبرت فاتجه نحو جهاز البصمة وفتح فمه... فمد ستيفن يده برعب ليكتمه وقال هامسًا بحنق شديد: ستجلب لنا مزيدًا من المتاعب وكأنك تتعجلها أنت لا تعلم إعدادات الأمان الخاص بالجهاز إن التقط صوتًا غريبًا قد يطلق معه الإنذار... أسرع بأي وسيلة أخرى فنحن من ثقتهم على المحك. وبالفعل اقترب أحدهم وأصبح عدو خلفهم وعدو أمامهم حينها صدر من ألبرت صوت لو كان ستيفن في أسوأ كوابيسه ما كان يتوقع أن يسمعه قط.. البتة!!

صوت المفتش تشارلي!!

***

يتيم

لم تغفل إميلي زيارة ويليام بعدما قابلت عمه الذي أخبرها بأنه -رغم ظهور أخيه- اعتبره ميتًا فلا استعداد لديه أن يخاطر بابنه الوحيد تحت تأثير الوجه الأسود للعلم وأن ويليام سيعلم لا محالة بوجود أبيه بهذه الحالة، ولكن العم يجاهد ليخفي عنه الأمر حتى ينضج ويتحمل عبء الحقيقة، ابتلعت رأيه بغصة تجاهلتها لتبتسم في وجه الطفل البريء الذي وقف يحييها: العمة إميلي أهلًا بكِ

جلسا يحتسيا العصير فقالت له بابتسامة واسعة جئتك بهدية فقال لها بخجل:

-تقصدين الحقيبة فوق ظهرك. رفعت حاجبها بتعجب: كيف توقعت؟، ابتسم وقال ببساطة:

-لا تحملين سواها. ضيقت عيناها بطفوليه وسألت: وما أدراك أني لا أتحدث عن هدية بداخلها وليس هي؟

قال بثقة:

-لأنك لا تحملين بداخلها شيئا. اعتدلت في جلستها وقالت

باهتمام جاد: كيف علمت ذلك ويليام؟ قال لها:

-هيئة كتفيك توحي بخفة حملك وانعدام أي وزن يتعدى وزنها مع حركة انزلاق يديها من على سترتك. قالت بإعجاب:

واو.. أنت عبقري. ابتسم شاكرًا وقد تلهفت عيناه نحو هاتفها الموجود على الطاولة أمامها بعد أن أصدر صوتًا يعرفه جيدًا فقالت له: نعم إنه إشعار أحب سلسلة ألعاب لديك، اشتريت لك من متجر الألعاب الإلكترونية أحدث تحديث لها أعلم أنك تحبها. تهلل وجهه وانفرجت أساريره فأعطته الهاتف ليلتقطه بلهفة واندمج حتى نسي وجودها، هدفت بشراء اللعبة أمرين ثانيهما أن تعوض ولو شيء مما كان يفعله والده لم يحرمه من هواياته ولا أحد الآن يهتم بتفصيلة كهذه فأرادت هي أن تهتم.. أما أولهما فهي أن تشغله ولو قليلًا قبل أن ترسل إليه التطبيق على جهازه حتى تتمكن من تأمله علها ترى في ملامحه والده الطبيعي البشري. قطع تأملها سؤال لاهث من ويليام وهو مندهش بشوق يقول:

-ما هذا عمة إميلي... أبي يرسل لك رسالة! كيف؟، انتفضت من مقعدها متلعثمة وقد جاءها إشعار ظهر أمام ويليام برسالة بريدية أرسلت للتو من ألبرت.. فتحت فمها ريثما تبحث عن إجابة فلاحقها بعينين متسعتين فتنهدت حتى لفح وجهه حرارة أنفاسها

وهي تقول: إنه مكتب أباك ويليام.. يرسل رسائل كل فترة تخص العمل لكل الطلاب.. شيء روتيني. عبس وتخطيا الموقف وحاولت اللعب معه قليلًا ومن ثم انصرفت، تسرع لتفتح الرسالة والتهمت الحروف كالجياع:

-أنا لست على ما يرام لا أعرف ما يحدث لي... شيء طيب أم سيجلب عليّ مزيدًا من المتاعب، أشعر باشتياق لنبض الدماء الحارة في عروقي كنبض أجنحة الصقر في بحر السماء... مشاعري الأصلية تنمو وتزداد ومعها ينمو إدراكي... أشعر أن رؤيتي للأمر أصبحت مختلفة وبت أتمكن من إخفاء بعض الملفات كهذه رسائل أرسلها لكِ. قبل أن أنهي رسالتي اعلمي أنه لابد من ابتعاد مارثا عن جون ولا تسأليني عن الأسباب.

أنهى رسالته القصيرة بغمضة طويلة منها بعد أن استندت على حائط في وسط الشارع تضربه بخلف رأسها ببطء.. تاق للبوح ولم يجد سواي.. آآه حبيبي لقد استلذذت إحكام وثاقي بك.. إليك برمجني لأكون طوعك وأصفو لك.. قطع تفكيرها اتصال فتمتمت: آآه مارثا عزيزتي يالحظك التعس

***

مـ ماذا!!

ذهل ستيفن حينما سمع صوت المفتش تشارلي يخرج من فم ألبرت بوضوح وهو يقول «افتح» بل صعق عندما فُتح الباب بالفعل!! وأصبح هناك ثلاثة أزواج من العيون كل زوج ينظر إلى الآخر.. عيون ستيفن تحمل كل معاني الصدمة وخيبة الأمل.. عيون ألبرت تحمل الانتصار والوعيد.. أما عيونه.. عيون تشارلي فكانت تحمل شيء من الهلع مغطى بالتماسك، ثبت ستيفن نظره على تشارلي لعله يهذي وقال: غير معقول. ثم حول نظره إلى ألبرت بوجل واسترجاه: قل لي أنه من قدراتك سحر أعين الناس.

تحرك تشارلي بعد أن استطاع السيطرة على صدمته خلال هذه الهنيهة وصفق ببطء بضع مرات وهو ينظر إلى ألبرت وقال بسخرية مصطنعة: لم أكن أعلم أنك آلة ذكية إلى هذا الحد كان يجب عليّ أن أستمر في مراقبتك، ولكني أخفقت لأني بشر أليس كذلك. كان يشمله الغيظ أكثر مما كان يحاول إظهاره من التماسك

-كيف نجحت في اختراق النظام الأمني الصوتي؟

قال ألبرت:

-وضعتك في قائمة المتهمين خاصة بعد قتلك لاثنين، تذكر حين كنت كالفرخ المسلوق بقبضتي في مكتبك تصرخ وتقول

(دعني... افتح قبضتك) ولأن كل محادثاتي معكم مسجلة فاقتطعت كلمة (افتح) بصوتك.

في حين كاد ستيفن ينفجر من تجاهله له فتقدم نحوه بسرعة وأمسك ياقته بكلتا يديه قائلًا بعنف: حدثني أنا.. ألا ترى أنني أتمزق غضبًا وأنا أجدك قائد لكل هذا الإجرام، أنت! أنت الذي توليت أمر هذه القضية وكنا نخشى عليك واتضح أننا كان من المفترض أن نخشى منك، إجازتك تمت الموافقة عليها واتضح الآن أنك تأخذها لتسترخي في رحلة غواصة بغيضة! قل لي أنك تمارس خدعة ما .. أم محتجز أنت هنا؟ مختطف؟ قال آخر كلماته وهو ينظر حوله بسرعة وريبة استشعر ألبرت أنه كاد أن يفقد ثباته فأمسك ذراعه ليبعده عن تشارلي وقال وهو لا ينقل عينيه من عيون هذا الأخير: بل هو الذي يَحتجز ولا يُحتجز. تهدج صوت ستيفن: منذ متى وأنت كالأخطبوط المقيت ذراع يعبث بنا وذراع معنا؟

جلس على مقعده خلف منضدة معدنية صغيرة عليها جهاز الإذاعة الداخلي:

-اعتبره عملي... أنا أعمل فيما أهواه هذه حياتي الخاصة لا شأن لأحد بها ثم أنظر إلى نفسك لقد أصبحت كبش يضحون به لأجل مجدهم فالفضل سيُنسب للصانع في عالمه وهذا الروبوت نجا أم لم

ينجو فالحالتين سواء أما أنت ماريونيت يحركونك كيفما شاءوا.

فتح ستيفن فمه يريد قول شيء.. ينتقد يسبه يصرخ يـــ.. ظل يتهته تزاحم كل شيء بداخله ليخرج من فِيه كل الضجر بصقة ألقاها بقوة تجاهه فقام واقفًا بعبوس وقال له بنبرة مهددة: كلاكما تعلمان أنكما في قلب الحوت لم ترتقيان لطفيليان وأنكما لا محالة مغلوبان وإشارة واحدة مني أجعلكما..، قاطعه ألبرت بصرامة: وجبة جديدة على قائمة طعامكم؟

ابتسم بسماجة وجاوبه بالنفي: نحن لا نأكل معادن أيها المسخ هذا أولًا أما ثانيًا فليس مما نهواه لحم البشر، ولكن سهل إغراقكما. نهره ستيفن وقال مستشيطًا: وماذا عن الحوادث التي عاصرناها معًا وحادث المترو إلى من ينتسبون أولئك الشرذمة المستذئبة!

وجدها فرصة لتبرير اتجاهه على الأقل يستميل زميله ويتستر عليهم أو ينضم لهم ويتخلصون من الروبوت بسهولة، فاقترب منه وقال بصدق: لا شأن لنا بهم ستيفن حقًّا نحن مجرد أخوية كل هدفها أن ما على الأرض حق لباطن الإنسان وأن لا حدود لما يشتهيه. قال ألبرت بصرامة: إن نهجكم مؤذ للبشر، أكل الحيوانات غير المسخرة للأكل تُنمي التوحش وهذا ما حدث للفئة الخارجة عنكم استوحشوا وأصبحوا يأكلون في بعضهم البعض، بل ويأكلون

الأبرياء وكانت البداية هو منطقك الفاسد.

-لا شأن لك بحديث يخص البشر لا تدلي بدلوك فيما لا يعنيك. واستطرد لستيفن: نحن نريد أن يكون لنا حماية وتصريح علني بممارسة ميولنا بحريه أتدري ما الذي دفعنا للاختباء هنا؟ قبضة الشرطة على المدينة بسبب أولئك المنشقون آكلي لحوم البشر فلا نُؤخذ بجريمتهم الشنعاء. قال ألبرت: منشقون! إذن هم منكم في الأساس. قال تشارلي بتأفف: نعم كنا أخوية واحدة كل اهتماماتنا أكل النوادر وما اشتهينا حتى ظهرت فئة من بيننا كأنهم يُشوَهون جينيًا حتى وصلا إلى ما وصلا ويتخذون من أجساد الموتى قطعًا ليلقوها في الطرقات العامة كإعلان لهم وكان إلقاء الفك والبطن والمؤخرة يشير إلى أن الفك له الحق في الأكل والمعدة فيما تشتهى والمؤخرة تخرج ما يضر فهم أحرار من الفك حتى المؤخرة، أصبحنا نجهل عنهم الكثير.

هنا انفجر ستيفن صائحًا في وجهه ومد سبابته يغرسها في صدره عدة مرات بانفعال: هذا هو أيها الأحمق الذي من شأنه حُرم وجُرم أكل الحيوانات بعشوائية أيها الأخرق تعبثون بالفطرة فتعبث بكم عقولكم المهترئة أوكنت تظن أن اختلاط لحومكم ودمائكم بما لا يتكافئ معها سيمر بسلام! كما شوه المنشقون ألا تعي!، إذن قل لي من المتسبب؟؟ من الذي جعلهم مجرمون سواكم؟ ألم تكونوا

الإشارة والبداية والطريق المُمهد؟

وقف صامدًا مع نغزات ستيفن بسبابته ولسانه وقال بجدية مدافعا: لا تحمل شخص جناية آخر

يصيح ستيفن: لولاكم ما كانوا.. إنها خطوات فلن يأكل الإنسان نفسه من الخطوة الأولى لابد من التدرج وكنتم أنتم الأب الروحي لتنجبوا لنا هؤلاء المسوخ ألم يطلقوا عليك لقب «الوحش» يا نبيل يا شريف!

نهره تشارلي: ولماذا يكون حتمًا لكم الحرية ومن خالفكم فلا.

نظر له باستنكار: أأصبحنا نحن وأنتم! جنسين مختلفين من البشر والمنشقين جنس ثالث ولا نعلم ماذا سينشق عنهم ولا يتخيله عقل! لهذا لابد أن نكون جنس واحد للبقاء تشارلي لنبقى أسوياء نعيش في تناغم وأمان ورُقي لينعم أطفالنا الأبرياء بحرية وإلا افترستموهم في الشوارع لنصبح غابة، بل جحيم تعجلناه على الأرض، لهذا لا ينبغي أن تنشق عن الجماعة وتنفرد بأهوائك لهذا لابد من قوانين تحكم شواذ الفطرة فحريتهم التي يستندون عليها تُنهي المجتمع وتنشئ ولو على المدى البعيد أجناس مؤذية تدمر الأمان قبل الحياة.

ثم التف ستيفن حول نفسه ببطء يتذكر ويستطرد متهكمًا: أنت

الذي كنت تناقشني في أمر من يقيم علاقة جنسية مع نفس نوعه وتقنعني أنه أمر يخل بهوية المجتمع وترابطه وأمانه وسينشئ جيلًا مشوهًا أخلاقيًّا ونفسيًّا وسلوكيًّا وأنا الذي كنت أجادلك وأقول، بل هي حرية، لكلٍ ما يهوى، فأفحمتني بردك المتزن أيها الرزين وقلت لي.. أنت لا تريد أن تتحمل عبء أمة قادمة من أجل شهوة دقائق فلكل شيء تبعاته وإن تُرك كل المرء لهواه لأصبحنا فناء قبل أن نحيا، لابد من التكاتف لحياة كريمة وفي سبيل الفضائل لابد من كبت بعض الأهواء مقابل المصلحة العامة فلتكبت هواك ستيفن لأجل الحياة ولا تحيا لأجلك وحدك.

ثم أمسك بما على المنضدة يقذفه به بكل قوته وهو يقول بصوت هادر: ألم تكن هذه قناعتك أيها المفتش!

تفادى تشارلي ما قذفه ستيفن من كلمات وأشياء بلا تعليق وفي هذه الأثناء لم يكن ألبرت يتشارك ظله بظلهما وهما يتبادلان الرؤى يتناطحان بالاتهامات، بل انسحب يدرس المكان ويضع احتمالاته في حين شغل ستيفن تشارلي وهو يطلق تنهيدة عميقة: إذن كان الفتى على المترو يعرفك وهذا تبرير أنه اختصك بأغلب نظراته المبهمة ولعلك قتلتهما حتى لا يعترفان بأنك مندس لهذا إذن كنت حزين لأنك تعرفهم وحزين على ما وصلوا إليه. استكمل له ألبرت: بل هو أيضا الذي أشرف على وضع القنبلة لنا في ادنبرة واستمال الفتى

ليخبرنا بالمكان ومن ثَم غدر به. قال تشارلي بضجر:

-نعم وكان ينظر إليّ انتقامًا لتركنا لهم وعدم دعمنا وانضمامنا ولكنه كان يكتم عنكم سري ولم يفضح أمري حتى لا أفصح في المقابل بما قد يوقعهم جميعا ظنًا منه أنني على علم بكل شيء يخصهم وهذا ما وهمتهم به. بتر كلماته صوت أجش سرى في الغرفة ليخترق أذانهم:

-»تشارل» لقد تم التزاوج سأتي إليك حالا حضر لي وجبة أنا أتضور جوعًا واستطرد الصوت واصفًا ما حدث وهو يضحك بغلظة، اتضح أن إجرامهم يصل إلى حد إجبار كائنين مختلفين على التزاوج على سبيل التسلية والتجربة لعلهما ينتجا حيوان جديد من نوعه فقط ليذوقوه! قال تشارلي:

-نسيت أن أخبركما أن من يطلقون عليه «الوحش» ليس أنا بل...

فُتح الباب فجأة واقتحم رجل المكان أو وحش بطول يزيد عن مترين جسده مفتول العضلات بارزة تتحدث عنه، لم تكن الأوشام على جسده لتسمح بالرائي بمعرفة لونه الحقيقي، ثمة شيء متشابه بينه وألبرت أن كليهما يستطيعان أن يريكما العين الحمراء لكن عين ألبرت كانت ألطف إذ بإرادته يشعلها أما هذا فلا نعرف أيضع أشياءً ليبدو مخيفًا أم أنه السلوك الشاذ في تحويل جسم الإنسان لشيء

مبهم يتغذى على ما لا يصلح أو على إنتاج حيواني من تزاوج غير منطقي! فاختل سلوكه وجسده وما لا إرادة له فيه ليصبح أسوأ شيء تفعله هو أن تنظر إليه، أصلع حليق شعر الجسم والوجه إذ نفر منه حاجبيه ولم يعودا يشغلا مكانهما. تمكن الصمت من الأربعة حتى قطعه الوحش وعينيه ما بين الضيفان: لديك صحبة تشارل ها؟ من تكونان لتدخلا غرفتي؟، سارع ستيفن بالرد وكانت جرأة منه إذ قال بثقة مصطنعة: نريد التماسا من الكابتن تشارلي لـ لنتمكن من الحصول على قطعة من شيء نادر فقط مللنا من المعتاد أليس كذلك كابتن تشارلي؟

أعطَى لتشارلي الأمل في أن انضمامه لم يعد مستحيلًا وأنه لا يكون بسبب الميول فقط، بل قد يكون بسبب الخوف، ضرب الوحش على صدره بقوة: لا كابتن هنا سواي وهذا خادمي. ثم أشار بازدراء: اخرجا من هنا طلبكما مرفوض.

تنفس ستيفن الصعداء وأشار برأسه لألبرت أن هيا بنا وكأن إشارته تتضمن صيحة فرح بنجاتهما، ولكن خاب ظنه حينما خذله تشارلي بوقاحة فاضحًا بغل: أنهما كاذبان متعديان على الغواصة وجاسوسان من الشرطة. وذهب بخطوات واسعة قطعها نحو ستيفن يمسك به بقوة وعينا ستيفن الهلعة تتساءل بلا صوت أن لماذا؟؟! أجابه بصوت منخفض: لا أثق بك تخرج من هنا لتخرجني

من منصبي إلى السجن أأنتظرك أن تبتلعني أم ابتدئ أنا. أما الوحش فلم يضع من الوقت شيئًا ولم يقل من الكلام حرفًا، بل انقض بقبضته في وجه ألبرت بقوة أطاحت بالأخير إلى الخلف وتوتر المكان بشكل سريع وتيقن ستيفن أن الوحش سيطوى الروبوت بيد واحدة ليصبح خردة صماء أما هو فليس مستبعدًا أن يقيم عليه تجاربه ويرغمه على تزاوج مع حيوان من أسراه. استغل انشغال الوحش بالروبوت وهمس لتشارلي بتوتر بالغ: أرجوك لقد كنا أصدقاء وزملاء.. سنوات من العمل سويًّا افعل شيئًا.

أمسك برقبته يلف ذراعه حولها وباليد الأخرى يوثق يديه من الخلف وكان هذا رده بلا زيادة، أما ألبرت فكان يراوغ الوحش ولا يصطدم معه في صراع حتى أثار غيظه فقال بصوت هادر: إلى أين ستذهب لا مفر لك مني إلا إليّ. وضع خطته ألبرت في ثوان بعد أن قام بمزيد من التحليل الخاص بهذا المفترس حينما لامسه واحتفظ بالسر لنفسه كورقة احتياطية

جز على أسنانه وقد تمكن من عنق ألبرت يخنقه ظنًا منه انه سيختنق!: فلترسل تحياتي إلى الجحيم. صاح تشارلي: إن هذا ليس بشرًا لتخنقه لن يختنق. اخترقت الجملة أذن الوحش دونما تأثير في سيطرة النصر وعدم منطقية ما قاله تشارلي إذ أحكم قبضة الموت على فريسته كما توهم، إلا حينما دُعم قول تشارلي بما فعله ألبرت، فلقد

رفع درجة حرارته ليتخلص من قبضته حينها فقط أحدثت المعلومة تأثيرًا ونفضه من بين ذراعيه بقوة وثبت المشهد يحاول استيعاب ماذا قد يكون هذا الشيء وبدلًا من أن يخاف أو يسأل عن كنهه انقض على شعره بقوة رهيبة مزمجرًا: لا أكترث فلتكن شيطانًا أو جنيًا محنك فسأقضم رأسك وستُضفى إلى أرقامي القياسية.

وبالفعل تحمل الحرارة لولا أن سرّح ألبرت الخصلات المقبوض عليها ليجد الوحش نفسه يرجع إلى الخلف وفي يديه الخصلات وبسرعة البرق التف حول الوحش ولف عنقه بذراعه كما كان يفعل معه منذ قليل، ولكن هذه المرة بشيء أكثر فطنة وخطورة، قال بوعيد: حركة واحدة وسأمنع الدم من الوصول إلى مخك القذر لتموت في لحظة وبأرخص طريقة أيها الوغد. تجمد الوحش مكانه ليس انسياقًا للتهديد، ولكنه يعلم جيدًا صدق ما يتوعده به فهو دارس للتشريح ويمارسه في ضحاياه وما كانوا يغامرون باحتجاز حيوانات تبث سمًا إلا لأن معهم خبير تشريح يعلم ما يؤخذ من جسد الحيوان وما يُستغل لمصالحهم من سمه ويعلم ما يقصده ألبرت إن ضغط بحنكة على «شريانه السباتي» فسيوقف تدفق الدم إلى مخه وأقل ما يمكن أن يصيبه من هذا فقدان الوعي وإن أفاق فلربما يكون أحدث فيه عجز ما إن لم تؤدي به إلى الموت السريع

وأصبح تشارلي محتجز ستيفن وألبرت يحتجز الوحش فصاح

ألبرت آمرا:

-تشارلي أطلق ستيفن على الفور

-لن تفلتا منا وإن فعلتما فلن تفلتا من الرجال بالخارج وإن فعلتما فلن تفلتا من الغواصة وإن فعلتما فلن تفلتا من المحيط أيسر لكما الاستسلام ها هنا. وهنا قرر ألبرت الإفصاح عن نتيجة تحليله للوحش.. عن ورقته التي اختزنها للظروف وقد حانت.. الوحش هو رأس الأخطبوط أنه من آكلي لحوم البشر.. هو الذي يمتد منه الفئة المزلزلة للأمن في انجلترا الفئة صاحبة الحوادث المقيتة المشيبة للرؤوس وهو أيضًا الذي تمتد منه فئة تشارلي والمجاذيب بالخارج.. ذراعين لأخطبوط واحد لا تصل ذراع للأخرى ولابد أن نقطع الأذرع، بل الأسهل من ذلك بتر رأسه لتموت أذرعه ولا تقوم لها قائمة. يعلم ألبرت أن تشارلي لا يعرف الجانب الأسود من هذا الذي يرأسه ويظن أن أقصى لذائذه أن يفترس حيوانًا حيًّا لزجًا يمضغه ليستطعم لحمه ويستنشق روحه، لم يراوغ في تفجير الحقيقة ليبث الرعب فيه ويذبذبه حتى تتراخى قبضته عن ستيفن ولعله ينضم إليهما: هو الذي سيأكلك ويبتدئ بك أنه هو لقائد المنشقين المنحرفين.. هو آكل لحوم البشر. ضحك تشارلي بعصبية وقال باحتقار: كم أنت بدائي أوتظن أن ما تقوله حيلة يعتد بها!

وهنا بُهت تشارلي من تصريح الوحش بصوت يتملكه الغيظ والعجز: نعم أنا قائد الكل ولا أحد يخرج عن سلطتي وسأبدأ بالتهام هذا الوسيم وأذيقك شيئًا منه.

يريد بث روح الثقة والقوة في نفس تشارلي فلا أمل له سواه الآن وهو رهين تحت حركة من أصابع الشيطان الذي يكبله، ولم يتوقع أن ما قاله مده بالذعر والضياع فلا هو في مأمن من الشرطة ولا منه.. تهته تشارلي: لـ لماذا تفعل ذلك؟؟ بعد كل هذا البحث أتكون أنت! لِمَ البشر.. لِمَ؟!.

قال الوحش بحروف يضغط عليها ترقبًا: -كيف نكون كبشر في قمة هرم الغذاء إن لم نأكل مَن في قمته.

همس تشارلي غير مستسيغ هذا المبدأ الغريب: البشر.. البشر هم من في قمته! سرّح ستيفن فما كان لقبضته عليه معنى وفور تحرره التصق بالحائط وحل الصمت إلا من صوت الغواصة كوحش معدني يئن وسط المحيط وما أدراك ما الغموض والرهبة التي تكمن في صوت المعادن في مائه، ولم يكن للصمت حظ بداخل عقل كل منهم.. قرر استخلاص نجاته من بين تهديد هذا وذاك وعمل لنفسه ومعها كفريق وأول قرار هو التخلص مما يمكنه من ثلاثتهم فخطر ستيفن في الفضيحة والسجن وخطر الروبوت كذلك ومعه القتل،

والوحش خطر على البشرية جمعاء فارتد إلى ستيفن كأيسر غنيمة وفي حركة مباغتة لف عنقه واعتصره.. اختنق ولم يردد سوى: ألبرت ألبرت النجدة تشارلي لا تفعل وظل يخور وألبرت يصيح واشتعل المكان وانقضى كل شيء بالنسبة لستيفن فتراخت محاولاته وانعدم صوته وتدلى من ذراعه فألقاه أرضًا.. جثة هامدة

***

أخبرَتها بنصيحة ألبرت الحثيثة في أن تنزع من جون الأمل، تُعلق مارثا بشرود:

-ترى ما الذي جعل دكتور ألبرت يخبرك بذلك، ما الذي يجعل الأمر من الأهمية عنده بأن يُذكر، هذا الجون قال لي أنه ذاهب في رحلة ولم يذكر لي عنها أي تفاصيل حتى عندما قلت له خذني معك لا أدري لماذا انفجر ضاحكًا ثم رفض! ومن حينها لا اتصال منه ولا متاح هاتفه لأتصل أنا، يبدو أن الأسباب تراكمت على علاقتنا حتى قطعت أنفاسها

-أنا لا أدري ما الذي جذبك إليه وهو على هذه الحال من الأساس.

-حمقاء... جذبني مرحه وصخبه وكلماته الآسرة، لا شيء يقيده يذهب لأي مكان في أي وقت هو كبير نفسه ولا أحد يتحكم به حتى انقلب عليّ كل ما ظننته يُمدح.

ملّت إميلي من السير فرجعت إلى سيارتها تقودها ببطء وهي تكمل: يبدو أن الدنيا لا يدوم أمانها إلا مع أشخاص ذوي مسئولية يزورهم المرح لكن الجدية تسكنهم، ومن لا كبير له فلن يكترث لنا بعد حين.

أومأت من طرفها مارثا باقتناع وقالت: أين كانت حكمتك

تلك وأنا أغوص في بحر متقلب الأهواء؟

-لم تكن لدي ولكني اكتسبتها وتعلمت حينما تألمت، خذي مني حتى لا تتألمين، الذكي من سُقي من بئر الخبرة قبل أن يقع بداخله.

-ولكن دكتور ألبرت موثوق به مهما غاب.

-نعم... مهما غاب.

-ماذا بشأن زواجكما ألم يحن بعد؟.

-لا أعلم فهو لم يعد كما كان، حتى أبي أتهرّب منه حتى لا يسألني نفس سؤالك، كيف حال والدتك بالمناسبة، ماذا فعلت في عراقيل عملها؟.

-التأمين سيتولى الأمر، وإلى حينها ستحاول جبر كسر خزانتها والوقوف على قدميها مجددًا هذه هي أمي لا تقلقي.

أنهت إميلي مكالمتها التي تزامنت مع وصولها إلى البيت وفور ما ترجلت من سيارتها اصطدمت بوالدها البروفيسور سبستيان يقف بملامح جادة شبه غاضبة يضرب بعصاه الأرض.. نذير لحوار لا ترغب به.

***

رأى ألبرت ستيفن وهو يقع جثة هامدة بُهت وحُرك شيء طفيف من بشريته استغله الوحش وقد ظن أن تشارلي عاونه وتخلص من أحدهما وبقي الآخر الذي في جزء من الثانية غفل وما كان ينبغي له أن يفعل فأسقط ألبرت على ظهره ولكنه ارتد واقفًا بسرعة عجيبة لم توقف الوحش بل بسرعة قاربت سرعته سدد لكمات متتالية في وجهه وجسده والأغرب أنه ترك نفسه ولم يبادله اللكمات وكأنه حينما استفاق شيء من بشريته أغرته للمزيد، استسلم ليتلقى أكثر لعله يشعر بالألم.. الألم.. وكأنه يستدعيه تلذذًا فقط لأنه يذكره بإنسانيته الراحلة، قرر تشارلي إنهاء كل هذا والتف في انشغال تام من طاغ ومستسلم وضغط زر لفخ مُعد إن هاجم المكان أحدهم

وفجأة هوى من السقف سلسلة معدنية غليظة في أسفلها أداة حادة من اتجاهين على شكل مرساة السفن للتخلص من شخص غير مرغوب فيه ومن يكون سوى روبوت ذو عقل يسجل كل شيء فلابد من تدميره فلا دليل يفشيه، وانحنت المرساة على مستوى رأس الفرد العادي في موضع المخ تمامًا.

وشرخت صيحة قوية صمتهم كما تشرخ المرساة فراغ الغرفة هاوية، واتسعت عينا تشارلي بعبوس يتمتم: ماذا.. كيف!!. هب ستيفن صارخًا مسرعًا ليدفع جسد أحدهم فيتغير المصير الذي كان متوقعًا ومُتيَقنًا منه!

ليتك ما حييت ستيفن ليتك ما تدخلت...!

هوى الفخ الحديدي ليغرس بقوة في عنقه يحدث صوتًا مقيتًا وهو يخدش العظم وينثر الدماء في الاتجاهين تتبعه حشرجة تقشعر منها الأبدان، فلقد اخترق عنق الوحش في منتصفه من الأمام وأمام عينيه يرى الفخ الذي أشرف على إعداده قد كان يُعد له منذ البداية وبيديه، هدر تشارلي بغضب: ليتك ما حييت ستيفن ليتك ما تدخلت. كان يرى تشارلي أن ألبرت والوحش كلاهما خطر عليه ولكن ألبرت أشدهما خطورة لما يحويه من وثائق وليس من السهل التخلص منه أما الوحش فيسهل خداعة لعلاقتهما السابقة ومن ثم التخلص منه، كانت المرساة تمامًا لتُغرس في مقدمة رأس ألبرت لولا قام ستيفن ودفعه فأصبح في لحظة الوحش هو البديل ولأنه طويل القامة غُرست المرساة في أول عنقه يرتفع عن صدره ببضعة سنتيمترات، لم تخرج روحه بسهوله بل ظل يحشرج وعيناه كادتا تقذفان من محجريهما في مشهد مروع أراد تشارلي إنهاء عذابه فضغط زر المرساة لترتد لمكمنها وارتفعت وهي تحمل الجسد من عنقه الذي ما عاد يتحمل أكثر وقد تهتك وبدلًا من أن تنفصل الرأس بعنقها ويهوى الجسد انفتح العنق ليُرجع الرأس للخلف في وضع مريب وظل معلق من شيء يسير من جلد قفاه ورغم هول المشهد إلا أن صوت أحد أفراد الطاقم المذعور بالخارج استولى على انتباههم يردد

في الجهاز الداخلي يلقى بخبر لم يكن في الحسبان: الرجاء ارتداء بذلات الغطس وأنابيب الأكسجين.. إلى جميع سكان الغواصة التوجه فورًا إلى..

التقط ذو الشارب من المتحدث الجهاز وصرخ بفزع: الغواصة تهوى إلى قاع لم تُعد له.. أُتلِفَ صمام الصهريج.. الماء يُخفضها لعمق سنموت فيه جميعًا

وتأكد ألبرت من أن فخه أتى ثماره وزهدوا ثلاثتهم في مشهد الوحش وهو يتهتك حيث هتك فرائسه مسبقًا واشتعل قلبيّ تشارلي وستيفن رعبًا ونسيا ما كانا بشأنه وأصبحا وكأنهما مجرد مخلوقين من مخلوقات المحيط تهرول بحثًا عن نجاة من فك كاد يبتلعهما، تشارلي يعرف طريقه جيدًا حيث أنه لم يعد يبالي بشيء إلا حياته فتح باب الغرفة حيث الهرج، غوغائية لا نظام لا هوادة يصطدمون ببعضهم بدوا كالسكارى من هول الرعب والشتات عدا القليل الذي يعلم ماذا يفعل، أما ستيفن حدق في ألبرت بوجه مصفر شاحب يحرك ذراعيه متسائلًا بارتباك ماذا سنفعل؟. سحب ألبرت أنبوب الأكسجين القابع في الخزانة وانطلقا وهما يسمعان ارتطام الجسد بالأرض لم يستطع ستيفن النظر للخلف ليرى بشاعة المشهد وإن كان قد تخيله وانغمسا في معركة الحياة لا أحد يرى سوى روحه التي يصارع لبقائها بداخل وعائه الفاني، وستيفن كالطفل يسحبه ألبرت

من معصمه بيد وبالأخرى يحمل له أنبوبه كطفل تحمل عنه أمه حقيبته يصطدما برجل ابتلعته البلادة لا يشعر بما حوله يجلس على أرض الغواصة يلتهم شيء يشبه حظه الأسود! اخترق المتزاحمين بثبات في طريقه للأعلى وزاد ازدحام المخرج مع ضيقه وكاد ينزلق من قبضته لولا حمله على ظهره حتى صعدا للمخرج الذي لا يُفتح رغم استمرار المحاولات بجنون وإن فُتح ستغمر المياه باندفاعها كل شيء، تقابلت وجوههم تشارلي وألبرت وستيفن فأشاح الأول بوجهه غير أن أذنه التقطت ما لا يود سماعه:

-أتدري إن ظلت الغواصة تهوى بنا إلى عمق أكبر ما الذي سيحدث لكم؟ لن تتحمل أذناك ضغط العمق المائي ستنفجر ويخرج منها الدماء كما أخرجتموه من ضحاياكم. توترت نظرات تشارلي يبعدها عنه ويقول بعند بدا ضعيفًا:

-حسنًا علها لن تسمع صوتك مجددًا. استطرد ألبرت بقوة: ورئتيك ستضمر وتنافس الليمونة في صغرها وتترك صدرك واسعًا لاستقبال الموت ودماؤك السخية بداخلك الآن يالها من خائنة ستنكمش من ذراعيك وقدميك. نهره بصوت مرتعش أن كف عن الهراء. وبنبره غريبة.. يغمض ألبرت عينيه ببطء: الألم .. الألمم يطيل فيها حتى انقض عليه فاستوقفه صوت ذو الشارب وهو مرتعد يصرخ: كدنا نصل للعمق الأسود لا مفر لنا إما أن نُقبر

بداخلها أو نخرج فيحطمنا ضغط الماء ويهشمنا تهشيمًا. ترددت أنفاس تشارلي ولهث من فرط الانفعال وهو يسأل ألبرت بمقت: لا شك في أن تكون أنت وراء هذا العطل أيها الوغد.

-لم يكن صعبًا وضع قنبلة صغيرة متطورة بداخل صمام الصهريج لتصل بكم إلى عمق تتعرفون فيه إلى الموت. ثم نظر له بشراسة واستطرد بغلظة: أخطأتم فهم الحياة فهاكم الموت علكم تحسنون فهمه. لم يستطع الرد، بل انطلق يعاون الذين حاولوا فتح المخرج بعنف ويصرخ ذو الشارب ثوان وندخل إلى عمق الموت.. عشرة.. تسع ثمان

وصرخ البعض بهستيرية واستسلم ستيفن كالميت.. سبع ست خمس.. دميت يد تشارلي لا فائدة، أحكم ألبرت الأنبوب على فم ستيفن.. أربعة ثلاثة اثنان.. هجم الماء في لحظة إلى الداخل أطاح بالكثير إلا من تشبث وكان قد ارتدى أنبوب نجاته، القليل تمكن من السباحة لتجنب العمق الذي كاد يعتصرهم ولعل أحسنهم حظًا هذا الذي يُحمَل على روبوت لا يعرف الألم آلي مثله كمثل الغواصة التي لم يكترث أحد سوى ألبرت للنظر إليها وهي تهوى بجسمها الأسطواني الأسود المهيب ببطء مرعب يخرج من جوفها فضلاتها من البشر منهم من يقاوم للصعود ومنهم من ضغط على أذنيه بجنون وحاول السباحة فلم يستطع فهوى وهو يتجرع الموت، أخرجت

أسوأ ما فيها.. لا حياة لا بقاء لا كرامة، مقتتهم فتقيأتهم بسخاء

ظل ستيفن يستنشق أكسجينه غير مصدق أنه نجا وإن كان مازال في مرحلة الخطر.. وجاء الخطر يسحبه من قدميه.. البغيض ينتزع ستيفن من قبضة الآلي ويركبه، ركب تشارلي فوق ظهر ألبرت جائع للنجاة يسعى لمزيد من ضمانات الحياة.. روبوت يمتطيه بدلًا من أن يرهق نفسه ويستنفذ مجهوده في السباحة يحاول الاستئثار به وكأنه تحول إلى علقة لا ينفك عن تشبثه.. طفيلي أناني متعدي

حاول ستيفن السباحة منفردًا وقد تملكه الوهن وتوقف ألبرت يركله تشارلي أن تحرك.. اسبح، كانت خطته السريعة هي أن يستغله في اختصار المسافة ومن ثَم يدمره من خلال الكهرباء فلقد لمح إصابة من أثر قوة ضرب الوحش في صراعهما ولابد من وجود دائرة كهربائية بداخله لربما يُصعق أو تحترق الأدلة وحينما وجد منه عدم التعاون، بل ومحاولة الرجوع لالتقاط ستيفن ظل يوجه ضربات حاول أن يجعلها قوية بداخل الماء وكان هذا صعبًا.. لم يكترث له وظل متجهًا نحو ستيفن الذي توتر توترًا بالغًا وهو يراه مقبلًا عليه يحيطه العدو من الخلف، فجأة توقف ألبرت بجمود ملامح.. تحجّر بالكامل كتمثال غارق يهوى ببطء نحو القاع المظلم ومن خلفه ظهر تشارلي ينظر بتشفي من تحت قناعه

***

هوى جسد ألبرت في مشهد بائس وعلم ستيفن أن الروبوت الذي كان يمثل له الحماية قد خرب وظل أمام عدوه وجها لوجه وطمع الأخير في مزيد من الإنجازات.. التخلص من ستيفن وما أيسر ذلك. همّ في انتزاع الأنبوب من فمه لولا أن فجأة أصبح جزئين!

جزء من رأسه إلى بطنه، وجزء انفصل عنه من بطنه إلى قدمه وظهر من بينهما ألبرت بوجه وحشي مخيف وهو يمسك بيدين حديديتين كلا من جزئين تشارلي وقد قصم ظهره وكسره نصفين وسط سحابة حمراء من الدماء

صُعق ستيفن، الصدمة دفعته إلى الخلف ينظر إلى وجه المقسوم فكان أسوأ ما يرى من الفواجع على وجه بشر مقتول، كان مشهده غريب على العين والنفس.. سبح نصفه السفلي ببطء بعيدًا ومازالت قدمه تتحرك بحركة لا إرادية مخيفة.. انتزع ألبرت من نصف تشارلي الفوقي أنبوب أكسجينه وارتداه واتجه نحو ستيفن الذي فر هاربًا منه لا يتملكه سوى الخوف مما رآه في عينيه ومن فعل يديه حتى انزلق الأنبوب من فمه ولم يحكم وثاقه فأطبق شفتيه بقوة وكتم أنفاسه بذعر وتيقن من النهاية وما عاد يفكر وهم بفتح فمه كرد فعل فطري فحشر ألبرت بسرعة بداخله الأنبوب الذي استخلصه من تشارلي وبدا له أن ستيفن يلتهم الأكسجين ولا يتنفسه وكأنه عاد

لرشده واستعاد الثقة به فقد ظن أن أصابه خلل ما فتحول لروبوت معد للقتل فيقتله بوحشية كما فعل مع الآخر.

شق الماء رأسه وهي تلتقط من الدنيا الحياة يسعل ويشهق وهام حوله ألبرت يقول بلطف: أنت بخير ستيفن؟

نظر له بتعجب أهذا هو ذاته المخيف في الأسفل! فوجئا بأحد الناجين قد تمكن من الوصول للسطح مثلهما

-أفلحت في شيء ما أخيرا يا جون. قالها ألبرت ساخرًا فاقترب منه بخزي

-ابتعد عن طريقي. نظر جون حوله بفزع والمحيط لا نهاية لأطرافه وأسرع خلفهما برجاء: أين أذهب أنا لن أستطع السباحة أكثر، ولن يكفي مخزوني من الأكسجين.. أرجوك خذني معكما، أنا هاو مبتدئ ضعيف لم يكن لي دخل بأي جرائم جانبيه كنت أحقق متعتي ويستفيدون من حنكتي في الحصول على ما يريدون من حيوانات نادرة يحبذون انضمامي لمصالحهم ويغفرون لأجلها ذلاتي.

-غاطستنا لا تتسع سوى لفردين.

كاد يبكي ويمسك بذراعه وكأنه لم يعي المعلومة الأخيرة ولا يريد استيعابها:

-خذني وسأعترف بكل شيء بالأخوية وبانضمامي لها وبسرقتي لشحنة الحيوانات لهم وللصانع وســ..

قبض ألبرت على كتفيه بقوة أحدثت في الماء تموجًا وقال بلهفة صارمة: ما الصانع ما الذي تعرفه عنه وماذا سرقت لأجله انطق؟!!

ازدرد جون لعابه مع بعض من ماء المحيط: لا أعلم عنه شيئا سوى أن الضابط تشارلي كان وسيطًا بيني وبينه قال لي أن هناك رجل سخي يطلقون عليه الصانع يريد كمية من حيوانات معينة، ولكن بسرية وخارج مرمى القانون وكانت الأخوية تعتمد عليّ في جلب الحيوانات النادرة لهم من خلال معارفي فتوسم فيّ أنني أستطيع جلب ما يريده الصانع وأغراني ففعلت.

لكمه في وجهه بقوة تأوه لها وتناثر الماء الأزرق الذي ما عاد مبهجًا لأحد منهم وقال بصوت هادر: كنت تستغل مارثا وأمها في ذلك

-نـ نعم سرقتهما أنا الفاعل وسأعترف، جلبت له دفعة من حيوان الخلد العاري كانت شحنته بأكملها له. بدا له أن عينا ألبرت أصبحت حمراء واشتدت عليه قبضته فقال متألما: هل هل ستأخذني معكما؟. ظل صامتًا لحظة ثم قذف به ليرتطم بجانب الغاطسة وقال بصوت يشبه الارتطام: إياك والاقتراب منهما بعد اليوم أتفهم.. اركب واذهب بعيدًا عني. نظر له ستيفن وقال بتعجب: ألبرت!!

-لا تقلق لسنا في حاجة للغاطسة

دلف جون بداخلها مهرولًا: حسنًا حسنًا. وبـازدراء عاونه ليديرها وانطلقت به نحو اتجاه ضبطه خصيصًا. تساءل ستيفن.. لماذا؟

-لقد أوقعته في مشكلة سيذهب إلى الحدود الفرنسية وحراس السواحل وسيتعلم درسا لن ينساه، أعلم انه جبان وسيكف عن سلوكه المختل ولأنه لا وجود الآن للأخوية لقد دمرت البؤرة بمقدراتها بأبرز الأعضاء بل دمرت بدمار الوحش. لا قيامة مُقدرة لفئة تفتقد لقائد.

أومأ ستيفن ثم طرح سؤال آخر: ماذا إن كان له خليفة يحيك ما تمزق؟

-نحن الآن على دراية بهم غير ما كنا ثم إنه إذا كُسرت الرهبة حلّت السيطرة كنتم تَرهبوهم والآن تُرهبوهم

ثم ألحق كلماته بأمر: حافظ على طفوك. وسبح للأسفل يهدف إلى التقاط أي لوح يتمسك به ستيفن ليظل فوق الماء، أتاه بلوح من بواقي محتويات غواصة كانت مليئة بحياة قد فنت، استلقى ستيفن على ظهره ينظر للسماء وقد اقترب شروق الشمس وسطع الضوء المحبب الذي يسبقه مهدئا مريحًا للنفس حاول إبعاد كل المشاهد المأسوية التي اختزنها ثم اعتذر: -لقد خالفت جزء من اتفاقنا بسرية

المهمة، الرسالة التي تحمل بيانات عن نقطة لقائنا لم تكن للمفتش تشارلي فحسب. هذا الذي كنت أرجو أن ينقذني أصبح هو قاتلي وأنت هو المنقذ أيعقل هذا!

-سأوصلك إلى تلك النقطة قبل أن يصلوا إلينا هم، لا تقلق.

-شكرا على انقاذك لي... كنت أظن أنك مت أو أقصد أنك قد تعطلت حينما جذب تشارلي شئ من جوفك، كانت حيلة لطيفة أن تصطنع ذلك لتلفته عنك.

ابتسم ألبرت وهو يدفع اللوح باتزان كما كان صوته: ما جذبه لم يؤذيني ثم أن الحيلة قد تعلمتها منك حينما أتقنت دور المختنق، أنا روبوت ستيفن أستقي أي معلومة أو مهارة تُعرض أمامي أخزنها وأستخدمها إن دعت الحاجة، شكرًا لقلقك عليّ ما خاب بحثي فيك، كنت أجمع معلومات عن الجميع لأنتقي داعمًا بشريًّا وكنت أنت على أول قائمتي.

-تعلم أنني كنت أبغضك؟

أبعد ألبرت عينيه عنه وتمتم مثله: أجل

-وهذا شيء يضايقك؟

-لا

-ولكنه يضايقني لأنني الآن أحبك، هل هناك آلي بنبلك! أي أخ حظيت به يسعدني قلبه المعدني ويحزنني أنه لن يشعر تجاهي بما أشعر به.. انظر إليّ وأخبرني ماذا تكون؟؟

-من فضلك أنت كف عن التفكير والانفعال تحليلي لحالتك يُبد أنك غاية في الضعف حاول الحفاظ على طاقتك حتى نصل ونكاد نفعل.

وكأنه أمسك بكلماته وقذفها في المحيط مستكملًا بانفعال: وماذا إن قلت لك أنني أراك بشرًا كاملًا شيء ما بداخلك يشبه البشر.. يشبهني. شعر ستيفن بأنه ثري بالغموض وقد يتصدق عليه بشيء يُسكن جوع فضوله، ولكن لحظات وأغشي عليه ليس لوهنه وإنما لسماعه ما لم يتخيله: -نعم أنا بشر مثلك مت ولا روح لي، أنا محول إلى آلي ولست مصنع بالكامل.

أغشى عليه من فوره وارتطم رأسه ارتطامًا بسيطًا باللوح فأمسك برأسه وأراحها وحسن وضعيتها وظل معه حتى وصلا قرب نقطة النجاة فتركه على وجه الماء الصافي وانسحب بظهره ينظر إليه نظرة مودعة قبل أن ينغمس تمامًا مختفيًا في المحيط يتمتم: سلام يا صديقي.

***

تمرد

تمت صيانتك بالكامل. قيلت العبارة بروتينية بداخل عرين الصانع ولم تكن المرة الأولى، ولكنها كانت مختلفة بعد أن أدى مهمته وبعد أن اختلط بالبشر واستيقظ بداخله ما قد ظن أنه قد فُني وكأن وسامته ازدادت وكأن الحياة ضُخت فيه من جديد، يرى الأمور بشكل أوقع ويرى في صانعه ما لم يكن في استطاعته من قبل أن يراه، بنبره مستفهمة وشيء من الكِبر سأله:

-مالك لا تشكرني كعادتك

-ألا يكفيك صمتي والصمت استسلام.

-لا تشك في أني على اطلاع كامل من مكمني بكل ما يدور في خلدك وما يُستحدث من مشاعر دخيلة. قام ألبرت يشد قامته بغضب مكتوم: ألم يكن هذا ما تنتظره وتريده؟ أن تأخذ من بشر شيء من ذاته لتلهو به حيثما ووقتما أردت فإن لم تفق مشاعره كان خردة ويا لسوء حظه إن استيقظ شيء منها فيصبح أحقر من فأر لتجارب بشر طامع!

صمت الصانع قليلًا قبل أن يرد بما لا يُتوقع وبلهجة آمره:

-الروبوت في طور الخمول... نفذ.

صاح ألبرت.. أهكذا تواجه مشاكلك تهرب بإغلاق ما قد لهثت أنا بحثًا عنه تبخل عليّ كوني سأصبح أفضل منك.

وشعر بتنفيذ الأمر بداخله أوتوماتيكيا وأصبح في عقله صراع غير مسبوق ملفات إلكترونية تُغلق وخلاياه البشرية تقاوم وبفطرة مستيقظة أشارت بفكرة.. أول فكرة تنبع من خلاياه الأصلية وهي أن دعم وعيها يحتاج لإظهار المشاعر التي تمسه وما أقرب مشاعر تترجم الآن سوى الغضب فصرخ مقاومًا للأمر الخسيس: لاااا..

أطلقها بغضب هادر من أعماقه المعدنية بصوت جهوري مخيف وعلى شاشة حاسوب الصانع رأى هذا التطور الذي كان بلون أحمر على رسم بياني الذي ما كان يتشح إلا باللون الأخضر المسالم حتى أُطلق صفير إنذار لم يُقرع من قبل، وردد الصانع نفس الكلمة التي صرخ بها ألبرت، ولكن بتمتمة ذاهلة.. لا لالا

هاج يضرب الحائط ويصفع ويكسر المقعد الآلي باهظ القيمة والثمن المعد له خصيصًا، توأم ذاك الذي يكمن في شقته النائية، يعاند الأمر الذي يعمل عليه الصانع من مكمنه: إغلاق فوري إغلاق فوري.

اكتظ المكان حول الصانع بعدد من الخبراء وفجأة وبقوة خارقة

وأثناء مناقشتهم تمكن ألبرت من فتح ثغرة من خلالها خرج.. خرج من المبنى بالكامل ينهره الصانع وقد تخلى عن رزانته وأجبره الوضع الحالي على أن يتعامل معه بالنقاش كفرد مثله يقول بانفعال وشيء من الرجاء:

-إلى أين أنت ذاهب ألبرت؟! ارجع لنصل إلى نقطة تواصل ترضي كافة الأطراف وأولهم أنت.

بخطوات واثقة يريد أن يخرج إلى العمار إلى البيوت والبشر وبإرادته ليس كتكليف.. يرجع إلى حيث كان ينتمي ويحاول أن ينتمي

-تعال وسأفتح لك مزيدًا من الأبواب المغلقة... مزيدًا من إمكانياتك مزيدًا من ملفات التعريف... حسنًا تعال وسأريك جسدك الحقيقي. توقف ألبرت متسمرًا ثم قال بما يشبه حديث النفس: ألازلت تحتفظ به!. لحق سؤاله بإجابة سريعة ممتطية الأمل: محتفظ بأغلب محتواك البشري القديم ارجع وانظر إليه واكتشفه وحلله وادرسه.

لم يكترث واستمر في طريقه بعزم حتى طرح الصانع آخر أوراقه: حسنًا تعال وستراني.. وجهًا لوجه بلا سدود بلا تشويش فقط أنت وأنا.

وصمتا كليهما غير أن حذاء ألبرت مازال يتصدر الهدوء بوقعه على الأرض يخطو، ولكن إلى الطريق المعاكس! عائدًا

-تنهد الصانع الصعداء متمتمًا: تعال ارجع إليّ فأنا لك اليوم...

***

الصانع

استقبله رجل في بداية العقد الخامس من العمر كان قد رآه في فيلم تصنيعه الوثائقي رجل آوَى عورته وعريه .. اقترب الرجل منه وكأنه لا يصدق أنه يمد إليه يداه ليصافحه قائلًا بوجل: مرحبًا بك روبو .. مرحبا ألبرت. استشعر من يده رجفة خفيفة فشد على يديه بما يشبه الطمأنة وقال بلطف رزين: ما بك دكتور «براين» أنا الذي كنت بين يديك تفعل بي ما تشاء فلم الرهبة الآن. ابتسم دكتور براين: كيف عرفت اسمي؟

-أنسيت أنني أختزن كل المعلومات بداية من تشغيلي .. يومها.

-نعم فلنطلق عليه يوم ميلادك يوم كُلل النجاح واستردنا منك ما يمكّنك من الحياة

-الوجود دكتور براين .. الوجود وليس الحياة.

لم يعلق، ولكن اصطحبه إلى رواق لم يُفتح له من قبل:

-لماذا لم تظنني الصانع الأصلي؟ ما الذي يدريك أنني لست هو؟

-هذا مما يدل على إتقان صنعكم

ابتسم براين يعرف نفسه أكثر: حسنًا أنا عالم في الأحياء والجيولوجيا وشغفي يدور حول الحقب الجيولوجية والسفر في أكثر من بلد للدراسة عن كثب وبواقع حقيقي وبمناسبة الواقع الحقيقي فخلف هذا الباب بقيتك فلتكن جاهزًا

وفتح الباب ليكشف عن غرفة صغيرة ذات حوائط معدنية بيضاء أرض وسقف وحوائط لا نوافذ فيها سوى الباب الذي فُتح وآخر في الحائط المقابل فهي فارغة تمامًا إلا من خزانة زجاجية بارتفاع مترين وعرض سبعون سنتيمتر ملاصقة للحائط الثالث في الغرفة، خزانة ممتلئة بمحلول بداخله إنسان واقف مثبت. اقترب بخطى بطيئة ليقف وجهًا لوجه أمام .. نفسه غير أنه هيكل عظمي يقبع بداخله أعضائه، كل شيء في مكانه الأصلي. تركه الرجل مع نفسه! وانصرف، كان مشهدًا مهيبًا أن يُجزأ إنسان إلى اثنين ومن ثم يقفان في مواجهة بعضهما أحدهما يعي والآخر لا، يجبرونه على الوجود وإن كانوا تركوه لحاله لكان قد فنى إلى الغيب والستر بعِزة كان قد أُخفي عن كل العيون أما الآن فهو مَهين مُقتطع منه ما قد زُرع بداخل الجمجمة المعدنية التي شاء أم أبى يحملها بين عاتقيه الصناعيتين، أخلايا بسيطة ليست من صنع البشر أنشأت في رحم مخلوقة يكون لها الغلبة؟! تهاوت الأسئلة طرقًا بداخل عقله كبندول

نيوتن وصوته الرتيب وانتقلت أسئلته المتضافرة ما بين حاجة بشرية وتساؤلات افتراضية، ماذا بشأن صانعي أتراه روبوت عضوي مثلي؟؟

سمع من خلف الباب الموجه له ظهره خطوات تقترب كادت تجعله يشعر بأن له قلب ينبض توترًا وعصف بعقله المزدوج احتمال واحد.. لا يوجد سوى احتمال يحاول طرده من عقله.. يضرب أخماسًا في أسداسًا، بل بليونات في تريليونات لينتج احتمال مجاور، ولكن لا جدوى فالنتيجة واحدة.. أنه الرجل ذو الـــ.. ثلاثة أقدام...!

-غير معقول.. بروفيسور سبستيان!!!

قال البروفيسور الصانع بنبرة حانية مترقبة: بل أنت هو غير المعقول بني

-عمل عقله بسرعة رهيبة يربط الأحداث والمواقف والصور والكلمات... وأذنه واعية تستمع لما يقوله الصانع:

-وأخيرًا جاءت اللحظة التي أستطيع فيها أن ألمسك بواقع شخصيتي... جاءت اللحظة التي أقف فيها أمام أكبر وأبرز اختراع على مر التاريخ، صدقني ما كان فضولك أكبر من اشتياقي إلى هذه اللحظة الماتعة... ماتعة في رهبتها شوقها شغفها وروائها ألبرت أن أقف أمامك وأمامك... وأشار إلى الهيكل الماكث أمامهما واحتضن

الصانع صنعه... احتضنه ألبرت الممتن نعم فهذا هو الذي رد إليه حياته ومنع جسده من الفناء ووهبه إمكانيات غير مسبوقة، وفي نفس اللحظة التي وعى فيها كل ما سبق ضم الصانع إليه أكثر حتى دفعه بقوة بعيدًا!

فترنح مصدومًا حائرًا لم تصدمه الدفعة قدر ما صدمته نظرة ألبرت الغاضبة وخُيل إليه أنه ينفث من أنفه زفيرًا كالنفير واقف بهيئته القوية منزل ذراعيه بجانبه وكفيه مغلقهما بقوة قبضتين كمطرقتين متحفزتين

-بني لماذا فعلت ذلك؟!!

-أبغضك... قالها بصوت صارم مخيف نفرت منه أذني البروفيسور واضطرب على إثرها فاستطرد: ها قد نزعت قناعك كما نزعت بشريتي.

-لقد كنت ميتًا ألبرت.

فعصفه بنظرته وهو يُفحمه: ولكن جسدي واحترامه وانزوائه في الأرض جزء من بشريتي.. تنازعني فيما تبقى مني!

لم يمنعه خوفه وهو يتراجع إلى الخلف من أن يتساءل بصوت رخيم: ألم أهب لك الوجود؟ ألم أنتشلك من كامل الموت إلى كمال الحياة؟

تقدم نحوه ببطء عبوس: تقصد وهبت لي معاناة.. فبدلًا من أنني كنت الآن غافلًا عما حدث لي فلقد جعلتني أرى ابني أمامي ولا أتمكن من قربه، وهب أني خالطته هل سأستطيع الجلوس معه على مائدة واحدة هل سألتقم من أنامله البريئة لُقيمة أبصقها في وجهه.. اعذرني ويليام فأنا ذو معدة معدنية! أم سينام بجانبي نوم هانئ وأنا جالس على مقعدي الإلكتروني متعدد الأنظمة وأقوم بإجراء شحني وعيناي تتوهج باللون الأحمر! هل هذه حياتي التي رددتها لي!! إن كنت تحاول أن تفيدني كف عني ضررك فمحاولتك تؤذيني.

-ولكني حفظت جسدك من الفناء، من يكره أن يظل شبابًا للأبد من يكره البقاء!!.

ضرب الحائط بقبضته فارتعد البروفيسور وتهيأ لإخراج شيء يخفيه في ملابسه لولا أن استدار عنه وأولاه ظهره: -أيها أكرم.. جسد مطوية والأرض تلفه وتستره عن العيون تحتضن ذراته وخلاياه تتوحد معها ليبقى منها وإليها. ثم استدار ببطء يواجهه: أم جسد هُتك وخلي كما يُخلى البعير تُنتزع أعضاءه وتُغمس كزينة للعرض تحت طلب أي تجارب.. ومخ عبث به فلا احترام لإنسان كان يحمله يومًا ويحمل بداخله ذكرياته وأفكاره مخ مزّق ووزع حسبما أردت أنت. هدر بصوت جهوري: أخبرني أيها العالِم أيهما أكرم الآن!!

ومازال فضول البروفيسور يمنعه من أن يخمد ثورة ألبرت الذي ما عاد هو الروبوت الذي يعرفه.. مازال يستمع إليه ليس ليقتنع وإنما ليرى إلى أي مدى تطور، طفرة غير محدودة النتائج. فأضاف متلجلجًا:

-لم أتوقع تمردك حينما خاطرت بظهورك بعد اختفائك، لولا سرية التعامل بيني وبين الجهات المعنية، وعلى كلٍ لكل عملية مزايا وعيوب فما بالك بتجربة الأولى من نوعها لها مزاياها الكثيرة ولها أيضًا عيوبًا نتقبلها ربما لابد من خسارة شيء في مقابل كسب أشياء والتنازل عن معاني زائلة مقابل معنى دائم والتضحية بثوابت فقيرة لنكتسب بدائل أكثر قوة واستمرارية.

حواهما صمت ثقيل لثوان قبل أن يدور ألبرت حوله الذي بدا مرتبكًا يتلفت تجاهه كزهرة دوار الشمس وبإيضاح كوضوح الشمس:

-تُلقي إليّ بمبررات كطعامًا حامضًا استخسرت طرحه في قمامتك! فِكر مريض كمنبعه، رأيك يكون مناسبًا لصنع روبوت من الألف إلى الياء صناعي بحت فلا ذكريات لديه ولا أسرة ولا مشاعر هذا هو العلم، أما انك تشوه إنسان وتقتطع منه وتُجري عليه تجاربك المدمرة فقط تحت لواء العلم فهذا إجرام، من أعطاك

الحق لتستخدم ما وهبني الرب من جسد وكمائن بشرية؟ من أذِن لك ولأمثالك بالعبث فيما لا يجوز العبث به باسم العلم الذي هو برئ منكم.. تقسيم الذرات.. استئصال الخلايا.. وماذا عن العبث بالأجنة.. تدمير أسرار الحياة.. ما لكم لا تدركون كوننا كائنات بسيطة وضعيفة للغاية كم نحن عَجزة وإن بدا منا القوة كل ما نكتشفه ونفهمه ونصنعه ما هو إلا كنيوترون لا يُرى فلابد لنا من الخضوع لقوانين المعيشة السوية وإن اخترقناها طمعًا في ري فضولنا سنهلك، وما ظهر الفساد في بركم ولا بحركم ولا هوائكم إلا بأيديكم، توشحت بالعلم لتستوحش عليّ! نظرتك ضيقة للأمور يا بروفيسور كما كانت لابنتك، قلب متبلد محاط بدماء حارة حتى هي ما عادت تحظى بداخلك بشيء من الرحمة.

-وكيف ذلك؟ ألم أرد إليها حبيبها على الأقل تستطيع أن تراه يحدثها وتحدثه

-والزواج الذي تحمست له في آخر لقاء بين ثلاثتنا... ألن يحجبها عن تكوين أسرة حقيقية مع رجل آخر؟ وهل هي تعلم الآن أنك أنت الذي فعلت بي ذلك؟؟

-إن علمت فستشكرني حتمًا

-حسنًا دعني أخبرها إن كنت تجرؤ دعني أطلعها على جُل

ممارساتك غير الشرعية.

أغمض بروفيسور سبستيان عينيه بضيق وحزن يقول بصوت خفيض: ما كان ينبغي للقائنا أن يكون هكذا ما كنت أتمنى سوى حبك كأبيك، أنا أعتبرك ابن لي حقًّا وصدقًا أقول.

تراخى من ألبرت كل ما كان يكنه له فيما مضى وتلذذ باعترافه: بل أنت غريمي، بل عدو للبشر الحقيقيين وأولهم ابنتك. ثم ألحقه بنظرة حارقة وبلسان كالجمر في لهيبه: أنت الذي سرقت الذاكرة المتنقلة خاصتي؟! أنت الذي اقتطعت منها مشروعي على جلد الخلد العاري لترقعني به! أنت الذي حولت الفائدة المرجوة للبشرية إلى فكرة شيطانية تستخدمني أنا فيها!

زاغت عينا البروفيسور ما كان يتوقع البتة أن يقف كمجرم أمام القاضي والمجني عليه في نفس الوقت وفتح فمه ليقول ما لا يفيد وإن كان صادقًا:

-حينما حدث لك حادث موتك وجدتها فرصة ومصادفة غنية ومفارقة مدهشة فزرعت فيك أفكارك وجعلت أول المنتفعين بها هو مالكها... وإن كانت إميلي لكنت طبقتها عليها.

كان كاذبًا في جملته الأخيرة مما دفع ألبرت ليقول بغل وتوعد وإنهاء لحوار أبغَضَه: أتعلم.. أنا الذي سأصدمها فيك حتى تقرر

مصيرها وتبتعد عن كلينا لتنجو منك ومن ظلمتي.

وبلمسة من إصبعه ضغط على ساعة يديه ليرسل إليها رسالة بموقعه فباغته البروفيسور إذ احتضنه بقوة فصرخ ألبرت ينظر للعجوز بمقت حتى بدأت عيناه في الإغلاق وتاهت نظرته وطرح على الأرض هذا لأن ضمته لم تكن ضمة احتواء ضمة اعتذار أو توبة، بل ليغرس في ظهره خنجره الكهربائي وفي نقطة ضعف يعلمها تحديدًا وأكثر من أي شخص.. ألا يعلم الصانع تفاصيل لعبته!!

***

قال دكتور براين وهو يتكئ بمرفقيه على ركبتيه مقتربًا من ألبرت بصوت هادئ:

-فلنعتبرها صفقة أنا موكل بإتمامها معك من الصانع، ماذا تريد؟ إن شئت أرجعناك إلى ابنك فسيعلم بوجودك إن آجلًا أو عاجلًا.

لم يجد رد فعل يوحي بالرغبة فاستطرد بطول صبر: حسنًا هل يرضيك زيجة هنيئة بمحبوبتك ولتعش حياة شبه طبيعية تحت أعيننا نرعاك بما لم تجد له بديلًا عند غيرنا

-مقابل ماذا؟ قالها ألبرت دون أن ينظر إليه

-مقابل أن...

-مقابل أن لا أفضحه أمام ابنته أليس كذلك؟

-وأيضًا تكف عنا تمردك

-لدي طلب واحد. ألقى طلبه ليُحشر في أذني الرجل كسدادتي أذن! جعلته يستنكر سائلًا وكأنه لم يسمع جيدًا: ماذا؟ تريد ماذا؟!!

-أقول لك أريد أن أدفن.

تجول بعينيه في الغرفة حائرًا باستنكار يكرر: تُدفن! ومن يعطيك الحق في ذلك؟

وهنا جاء دور ألبرت ليقترب منه وهو يستند بمرفقيه على ركبتيه قائلًا بتحد:

-أنتم، ألست للتو معرضًا عليّ صفقتين كلاهما يُشبعان حاجات بشرية؟ فطلبي لم يخرج عن نطاقكم، إن الدفن لحاجة بشرية فطرية بحتة وأنا مستمسك بها، فإن كان الحنين لابني حاجة بشرية فاعلم أن جمرة الشوق انطفأ لهيبها، وإن كانت حبيبتي تحظى مني بنبل فاعلم أن جمرة الشهوة مطموسة لدي ولم يتبق لي من حاجات البشر الآن سوى الرغبة في الستر.. في الاختباء والكمون والفناء، كف أذى الناس عني وكف ضرري عنهم، ثم إنكم قد نبشتوا قبري من

قبل أن أحفره ولذلك أرغب في دفن هذا المعلق بالداخل.. أنا أشفق على نفسي.

مسح الدكتور وجهه بيديه وقال بناء على موافقة جاءته في أذنه من الصانع:

-مقبول طلبك رغم خسارة أعضاء ثمينة كهذه لا تشارك بها في علم يتطور كل لحظة.

ضحك ضحكة قصيرة مستهزئة وتمتم:

-العلم نعم.

نظر له نظرة جامدة وقال بفراغ صبر:

-حسنًا سنصنع لك تابوتًا يلائمك من خشب «الأرو» وفي المقابر المجاورة لنا عدد من المقابر التي نملكها سنزفك إلى هناك ونحرص على مواساتك بحضور جمع من العلماء الذين باشروا عمليتك، هل هذا مُرضي؟

-لا...

بغيظ ساخر: ما رأيك في التخلص منك على الطريقة البوذية والهندوسية نحرقك لتصبح رمادًا

-بل أريد أن تحفر لي ثغرة في التراب وتهيلوه عليّ فقط بلا حرق

بلا صناديق بلا ملابس

-آه كما يفعل المسلمون تقصد؟

-لا أبالي من يفعل ذلك... فقط شيء بداخلي يدفعني للميل إلي أن أوارَى هكذا ولا أريد أن أتواجد حتى في هذه البلدة

-أنا على وشك السفر خارج بريطانيا لأستكمل بحثي في المغرب تحديدًا فما رأيك نضبط لك أوراقًا تضمن لك مسارًا جويًّا غير متعثر ولا مسئول عنه وكذلك حقيبة دبلوماسية لتنقل هيكلك بها، سهل أن أحفر لك حفرة ولو في حديقة بيتي وأضعك فيها ولكني أرغب في تقديرك لتضحيتك معنا... أنزهك وفي نفس الوقت تريح جسدك الغالي.

وكان رده أن.. لا تغالي فلا راحة ولا نزهة فقط ميل عميق من خلايا تكافح.. لترقد في سلام.

عمران

وبالفعل بعث به إلى مكان هادئ بعيد عن صخب المدينة وبعيد عن قلب المغرب العربي.. إلى مكان يعرف كيف ينفذ طلب ألبرت وبسلاسة لأنهم هم من يتبعون طريقة دفن كهذه بساطة وقبل شروق الشمس فور ما شق الصباح ظلام السماء وسط طريق ممهد بين مزرعة بدت منمقة خطى لا يشارك صوت خطواته سوى أصوات الطيور التي للتو استيقظت تسعى للحياة كحرصه على الموت، مثبتة عيناه على هدفه في أخر المشى الطويل.. بناء أبيض بسيط وهادئ لا يعلو عن طابق واحد وتعلوه قبة كلون السماء يجاورها عمود طويل بلون السحب وفي ثانية قد حصل على تقرير فوري عن ماهية البناء: «مسجد» هكذا يدعى إذن. لم يعتد على هدوء بهذا القدر ربما لأنه ترعرع وذبل في المدن ولم يزر حتى ريف انجلترا من قبل. وصل وأمام البوابة المفتوحة -ولا يدري لما هي مفتوحة- وبخطوات حريصة دخل فوجد عن يساره أرفف مرصوص عليها أحذية تبدو مستعملة.. إذن ليست للبيع هذه.. أدرك أنه لابد أن يخلع حذائه فور ما وقعت عيناه على أرجل الجالسين بالداخل ففعل ووقف يكتشف المكان.. مساحة واسعة مغطاة بالسجاد الأخضر النظيف

المعطر وكأن عطره مستمد من الزروع بالخارج فارغ إلا من القليل الملتفين حول شخص أمامهم يستند إلى عامود، من الأفضل أن أتحدث إليه، ضحك ساخرًا متخيلًا الحوار.. من فضلك يا رجل العامود أريد أن أدفن نفسي فيفر الرجل خائفًا ليرتطم بالعامود ويقع ونُدفن سويًّا، ولكن الرجل يبدو مهيبًا.. شابًا لم يتعد الخامسة والثلاثون من عمره أسود الشعر ناعمه لحيته كبيرة مُعتنى بها أسود العينين وأبيض البشرة وسيم يرتدي جلبابًا أبيضًا مزركشة حوافه وعلى ظهره تنسدل قبعة متصلة بردائه تاركها على ظهره لم يرتديها، ممشوقًا مفوهًا.

وقعت عيناه على ألبرت وهي تمر بين الوجوه وما لبثت تبتعد عنه حتى ترجع إليه مسرعة لغرابة هيئته.. يقينًا هو أجنبي، خاصة الحقيبة الكبيرة الغريبة حديثة الطراز التي يحملها، أرسل له رسالة ضمنية بنظرة من عينيه أن انتظرني لحظات وحينها فعّل برنامج الترجمة الذاتية للغة العربية وسمعه وهو يودع الجالسين أن صحبكم السلام والرحمة والبركة ثم أشار له بابتسامة أن تفضل بالجلوس، جلس وهو يفكر.. لقد حللت مشكلة فهم الرجل بالترجمة الذاتية فكيف سيفهمني فلم يتم إضافة برمجة للنطق بأكثر من ثلاث لغات وليست العربية من ضمنها فابتدأ الكلام بالجملة الاعتيادية لأي انجليزي: هل تتحدث الإنجليزية؟

اتسعت ابتسامة الشاب ذو العطر الهادئ وقال: والفرنسية إن أردت

رفع ألبرت حاجبه الأيمن مع ابتسامة خفيفة واختار الفرنسية لتكون همزة تواصلهم. لا يعلم الشاب المغربي إمام المسجد لماذا انقبض قلبه فور ما جلس أمامه الشاب الإنجليزي.. لا ليس لاختلاف جنسه وإنما.. شيء آخر لا يعرف كنهه!

-إن أمري يحتاج لعقل واسع ليسع فهمه يا...

- «عمران» ... وأنت ما اسمك أخي ومن أي بلد فنحن نحب ضيوفنا ونكرمهم

-ألـبرت... بريطاني ثم استطرد بتساؤل وهو يضع الحقيبة بحرص بينه وبين عمران: تعتاد على أن تطلق على أي شخص كلمة أخي؟. ظلت ابتسامة عمران تزين وجهه وهو يحاول أن يشيح بنظره وفضوله عن الحقيبة الغريبة وقال بفخر متواضع: نعم اعتدت عليها، المسلمون دائمًا على تواصل، بيننا شبكة كشبكة الإنترنت، ولكنها ليست عنكبوتية واهنة، بل شبكة حاضنة بالحماية والرحمة والتضامن، شبكة واحدة توصلنا ببعضنا.. لله .. ولذلك أحب أن أكون أخًا للجميع.

نظر ألبرت حوله يقول: نعم علمت أنكم تحبون المسجد

تجتمعون فيه كثيرًا، إخوة داخله

-وخارجه... استطرد له عمران... إخوة داخله وخارجه ألبرت

لاحظ عمران أنه يريد التحدث بشأن ما وكأنه يبحث عن بداية فتلطفًا به تعمد أن يجري معه أي حوار ليحدث الألفة ويفتح لغرضه بابًا موصدًا فاسترسل شارحا ومؤنسًا:

-نحن نعبد الله في داخل المسجد وفي خارجه أيضًا وإن من أعظم الأعمال في الإسلام... قاطعه ألبرت ليشاطره الكلام: امممم الصلاة أليس كذلك؟

اتسعت ابتسامته وأومأ برأسه: نعم وتدري ماذا أيضًا؟ الشبكة ألبرت.. شبكة تواصل تجمعنا.. سرور تدخله على مسلم فقط أن تجعله يبتسم هذا من أعظم الأعمال، أن تتقرب إلى الله بزيارة إنسان مريض، تُحسن إلى مسكين وتقوي ضعيفًا، تعطف على يتيم وتجبر خاطر قد انكسر، تتبع جنازة حتى لشخص لم تعرفه أبدًا فقط تراها من بعيد فتتقدم مشاركًا وداعه، كلمة حسنة ودودة طيبة تربطنا.

بدا ألبرت شاردًا وهو يستمع.. يتيم.. إذا ابني يتيم وأنا حوله. ثم قال عابسًا عبوس المهتم: أمحبب لديكم أن تتبعون الجنائز تودعون أصحابها ولم تكونوا تعرفوه؟!

-نعم ألم يستسلم لخالقه عبادة وطاعة وحبًا فنحن له عضد يستند عليه إن مرض ونؤازر أهله إن توفى ونخطو على عجل لنودعه وبكرامة نرده إلى الأرض بوقار وحزن ودعاء ورجاء أن يتجاوز الله عن ما أساء فيه.

يتمتم بالكاد يسمعه عمران: وبعد أن تدفنوه ماذا بعد.. لقد وقع من شبكتكم.. وحيدًا باردًا أجوفًا.

لم يستطع عمران إخفاء ملامحه المتعجبة فهو يشعر أن هناك شيء يشير إليه هذا الغريب، ولكن الغموض يكممه، فضّل ألا يسأله مباشرة عما يقصده ولكنه حاول الرد بحقيقة ما يعلمه:

-بل نحن على تواصل معه فالجسد مسكنه الأرض والروح ترد إلى خالقها وجعل الله لها ما يشبه الحبل السري في نظري... تستمد منه رزقها من الدعاء والاستغفار الذي يبثه الأحياء بل والصدقات من الأموال والعلم النافع

-حسبك عمران

صمت مطيعًا

-أتقول أن الشخص لا يُنسى ولا يُهمل، حسنًا وإن كان... فهذا لقريب منكم أو صديق فماذا عن شخص في أقصى الأرض ولا تعرفونه... حبله مقطوع

-لا والله ما انقطع لمسلم حبل وفي الأرض مسلمون يتنفسون... الله الذي خلقه لم ينساه فلقد أمرنا من خلال رسوله أن نتضامن معه ونرسل له خيرات دعائنا حيًّا وحيدًا أو ميتًا منسيًا مجهولًا.

-تأمين دائم في الحياة والممات إذن. علق ألبرت شاردًا، واستكمل له عمران: ومالي لا أُجل وأحترم وأساعد نفسًا طيبة خلقها الله، جميعنا لم نكن شيئاً مذكورًا وقبل أن نعقل كنا مستسلمين له.. أفئن عقلنا تمردنا!

-تقول أنكم ترسلون خير ما ينتجه العلم لروح مضت إلى المجهول تثقون أنه سيصل إذن أهناك علم يضر؟. كان ألبرت يعلم الإجابة جيدًا، بل هو ذاته إجابة، ولكنه يريد أن يرى أأحد يفهمه.. يشعر بوحشته؟ أسيؤيده أم العلم مطلق كفرس لا لجام له؟!

-لكل شيء جانب مختلف ألبرت كما للنهار ليل وللأبيض أسود وللسماء أرض فللعلم أيضًا وجهان وكما في الفطرة السليمة لنا كمخلوقات زوجان ذكر وأنثى تغمرهما شهوة بهدف التناسل شئنا أم أبينا... هما قد يظنان أن الشهوة هي الغاية، ولكنها حقًّا الوسيلة، إذا أي سلوك غير هذا يعتبر شاذ كالتزاوج مع حيوان أو ذكر مع ذكر أو أنثى مع أنثى ورغم ذلك بعض القوانين في بعض البلاد تؤيدهم، يقولون إن شعر ذكر بميل لجنسه الذكوري فهذا شيء على

غير إرادته بل خُلق هكذا فلم نجرمه ولم نمنعه؟ هل لديك أبناء؟، تمتم ألبرت: نعم.. واحد

-ترى أني فجأة شعرت بميل يدفعني لأن أقيم معه علاقة فقد أميل إلى الصبيان الصغار وهذه حرية كما يدعون وقد تكون لي قوانين تدعمني، فهل تقبل أنت أو تقنعك فطرتك بذلك؟ هب أن فتاة اشتهت أمها.. جارك اشتهى زوجتك.. حرية أليس كذلك؟! والقوانين تدعمهم فهم على حد قولهم خلقوا هكذا، نحن اتفقنا والعالم أجمع أن الأصل هو زوجين من كل شيء إذن أي تغيير فهو شاذ فلم يعطون الحق لسلوك غير سوي ولا يعطون الحق للأمثلة التي ذكرتها، وإن أعطيتم لكل صنف غير سوي حرية لفعل ما يريد هل تستقيم الحياة؟ أم ستصبح غابة وتختلط الأنساب وتذوب القيم وتفنى البشرية بأقذر ما يكون، بأي منطق يحتكمون أن نراعي نفسية من اشتهى جنسه ولا نراعي من اشتهى أم أو طفل! لكل فرد فيهما نفسية يجب أن نراعيها إذن!! ألبرت.. حينما يبدأ الأمان في التبدد يتآكل سريعًا، الله خلق قوانين ثابتة كحركة الفلك والمواقيت تستطيع معرفة موعد غروب الشمس بعد عشرين عامًا من الآن لدقة وانتظام القانون الفلكي كذلك خواص الحديد لها قانون ثابت وإلا وقعت على رؤوسِنا بيوتَنا فلماذا حينما أعطينا حرية في تصرفاتنا نريد أن نعبث بقانون الأرض وبدلًا من ذكر وأنثى يكون ذكر وذكر!

-نعم ولكن هل تقنعني أن في مجتمعكم لا يوجد من يشتهي بني جنسه؟

-بل يوجد ولكنه جاهد نفسه وفَقِه أن الدنيا بما فيها ما هي إلا أهون من جناح بعوضة وتيقن أنه إن كبت شهوته الشاذة فسيرضيه خالقه بما هو أدوم في الدنيا والجنة وعلم أنه إن امتنع عن ممارسة الرذيلة مع ذكر مثله فبذلك لا يتحمل وزر فساد النظام العام للمجتمع، أنا إن اشتهيت زوجتك أتسمح لي؟ زم ألبرت شفتيه وقال: بل سأدفعك بعيدًا وأقول لك احكم نفسك وابتعد عنها. ابتسم عمران وقال: هكذا أنت لخصت ما قلته للتو.. إذن تنهرني لأبتعد وأكف شهوتي التي ستنحرف عن موضعها ولم تكترث لنفسيتي إذن ولذلك أقول لك أن بيننا في مجتمعنا المحافظ أناس يشتهون بني جنسهم، ولكنهم جاهدوا أنفسهم كما تدعوني أنت لأجاهد نفسي عن زوجتك.

-ولكن ماذا عن الرغبة وعذابها كيف يتغلب عليها الشخص إن جاهد وكبت نفسه؟

ربت عمران على قدمه وقال بوجه رائق: هذه روعة التخلي عن شيء بغيض لأجل الله الواحد.. لله فقط وليس للخوف من الناس أو على الناس، وإذا كانت الدنيا كالجسر الواهن المعلق ألن

يردع حكمائه من رقصوا عليه فيهتز بهم ويقع في قعر لا فكاك منه؟ بوصلتك فطرتك وأي شيء شاذ عنها يعد أنانية، أيُهدم مجتمع بأكمله في سبيل نزوة عابرة! ثم حتى لو لم يكن لهذه الممارسات من ضرر فنحن نعبد الله الذي أوجدنا طاعة واستسلام مطلق سواء علمنا أم جهلنا الأسباب.

بقي ألبرت على صمته وجوفه ضجيج فبداخله أبنية تنهار وأخرى تُبنى.. مبادئ تهدم وقيم تترعرع، رغمًا عنه تذكر الغواصة وفتى المترو.. النتاج المشوه لأخوية انساقت مع شهوة البطن ضد الفطرة السليمة وكيف أصبحوا وحوش بيننا، كذلك شهوة الجنس إن انحرفت سينتج ما لا نتخيله وكما تم ردع هؤلاء فلابد من نفس النهج مع أي تطاول في أي شهوة

أنهى عمران حواره يربط ما بين أطراف المناقشة: هذا عن جانب شاذ في الخلق والسلوك وكذلك العلم الذي سألتني عنه ألبرت مؤكد له جانب شاذ غير مرغوب فيه، أنت بالعلم تستطيع أن تصنع مادة متعددة التركيبات الكيميائية لتساعد الإنسان في تيسير حياته وبنفس المادة قد تضره

أكمل له ألبرت بعيون مثبتة عليه: أو تصنع من الإنسان.. آلي.

فكر عمران ليجاريه في المثل الذي طرحه: نعم أو محاكاة الإنسان

وصنع آلة تقوم ببعض الأعمال تيسيرًا عليه هذا جيد

-لا ليس جيدًا... ليس جيدًا أقول لك يصنعون من الإنسان آلة

بدت الحيرة على وجه عمران لا يفهم ما يقصده: تقصد يزيدون الأحمال على الإنسان في العمل وكأنه ألة؟

بدا الحزن وشيئًا من الغضب على وجه ألبرت: لالا تفهمني.. لن تفهمني، أنا في أسوأ مراحل وجودي في دنيتكم.

شعر عمران بالشفقة عليه وتيقن أن ما يخفيه همًا ثقيلًا فاقترب منه: لا تبتئس نحن جميعًا هنا بجانبك قل لي ما حاجتك لا تحمل همًا.

حرك رأسه نفيًا: ما لا تعرفه عمران أنني ميت.. أنا رجل ميت.

قال عمران بانفعال عطوف: لا تقل هذا، حتى لو ظننت أن حياتك دُمرت لأي سبب كان فسوف نوفر لك مسكنًا إن أردت ولنبني معك حياتك من جديد ونبحث لك عن فرصة عمل

-نعم مسكن... هذا هو ما جئت لأجله... حفرة في الأرض تؤويني

-يا رجل لا تقل هذا بل ســـ... ووضع يده على يده يؤازره فتغيرت ملامحه وارتاب، فلقد وجد يده باردة برودة غريبة ليس

بها حرارة الجسد الطبيعي، كان ألبرت قد أهمل تفعيل ضبط حرارة جسده لمحاكاة البشر وبحركة لا إرادية نفرت يد عمران وأبعدها على الفور فقال له في محاولة لطمأنته:

-لا تقلق أنا غير مؤذي

كانت كلماته تزيد الريبة فاستطرد:

-تشارلز... أنا ألبرت تشارلز درست في كلية إمبريال بمدينة كنسينجتون كنت على وشك الحصول على دكتوراه في اكتشاف جديد وسُرق مني وطُبق عليّ، حدث لي حادث فمت وتم اختطاف جسدي وأجري عليه تجربة دقيقة ونادرة. صمت قليلًا حينما وجد أن وجه عمران لم يعد الوجه الودود اللطيف فلا يعرف أيعتبره مازحًا فيغضب أو مجنونًا فيخاف

هب واقفًا ليقف ألبرت مثله ولاحظ بعض المتواجدين في المسجد تغير وجه إمامهم مع الزائر الغريب فاقترب أحدهم على بعد أمتار يستبصر الأمر فأشارت له عينا عمران أن امكث قريبًا ولحقه غيره وتحفز عمران بكل جزء فيه فبدا قويًّا كقوة ألبرت الذي فحص إحداثياته وحزن لشعوره بالراحة معه وبغض أن يتغير تجاهه ولم يكن يتوقع أن يميل إلى شخص ما! فاقترب منه هامسًا: إن في الأمر لخصوصية لن أريها لأحد سواك. فاستجاب لطلبه وصرف

الرجلين فانصرفا وفي عينيهما الريبة وراقباهما من بعيد وخرج صوت عمران صارمًا:

-إن كنت جئت عابثًا فـ...

-اسمعني... سأثبت لك. وأراه من عجائبه ما يستحيل معه أن يكون إنسان فشهق عمران.. شهقة ارتد بها للخلف واصطدم بالمكتبة وراءه وارتج فانهالت خصلاته على عينيه فأبعدها بسرعة ليتأكد مما يرى، وجاء الجميع يركضون ووقف هو لا يزيح عينيه عن عمران ثابت لا يتزحزح وقد أمسك به بعض الرجال: ماذا هناك يا شيخ عمران؟، انقلب حاله هذا القوي الصارم المتزن إلى شخص متسع العينين بدهشة مفزوعة لا ينطق بشيء ويتكرر سؤالهم وهو لا يجيب بل يتحاشا النظر لعيني ألبرت وينظر لرفاقه كنظر المغشي عليه، لم يروه في حال كهذه من قبل، تمتم باسمه:

-عمران...

قالها بنبرة رجاء لمست منه وعيه فاستجمع نفسه وبدلًا من أن يستغيث بالرجال صرفهم مشكورًا وشاكرًا يقول: -إنه أمر شخصي، خبر مفزع سأتعامل مع الموقف شكرًا لكم.

نظروا إلى بعضهم بشك، ولكنهم احترموه وقرروا الابتعاد والمراقبة، واختليا مجددًا.. اقترب خطوة فتراجع عمران اثنتين فلم

يجد للثالثة مكان فاحتجزته المكتبة من خلفه فاستسلم يتحاشى النظر إليه

-أشكرك، لا تظن انك تتعامل مع جهاز آلي بالكامل فمازال بداخلي شيء مني خلايا بشرية استُكرِهَت على العمل والانصياع جبرًا لتحيا وما كان لها ذلك. شرح له كيفية عملها ونموها وتحكمها قص عليه من الأمر وأراه ما يثبته بمقاطع تسجيلية

-والآن أتيت لك بجسدي لأدفنه بعيدًا. أشار عمران بإصبع مرتعش: أنت هنا في هذه الحقيبة؟

أمسك ألبرت يده ليجلسا كما كانا وفتح الحقيبة فرأى ما لا يتوقع أنه قد يراه وبيد مرتجفة مد يديه وأغلقها وأخفض وجهه وظلا صامتين

-انظر إليّ عمران.

ففعل وقد امتلأت عيناه بالدموع

-مم تبكي؟ خائف مني؟

-كنت خائفًا، الآن أنا أصارع مشاعر غريبة عليّ ولم أجد لها مصرفًا ومتنفسًا سوى الدموع.

سأله ليس ليسارع بإنهاء المهمة فقط، ولكن ليمر الوقت سريعًا

ليعود عمران الذي التقيه مشرقًا: هل ستساعدني لأحقق أمنيتي الأخيرة؟

أومأ برأسه عمران وحاول أن يقوم ففشل فالتقط ألبرت يديه يسندها على ذراعه القوي مستسلمًا له وفي اليد الأخرى حمل حقيبته. أشار لأحدهم وقال بوهن: سأذهب إلى المقابر المجاورة اعتنوا بالمسجد. فلم يكن جديدًا عليه زيارة المقابر المجاورة ففيها من مات من أهل البلدة ومن أقاربه وفيها مقابر الصدقات التي تؤوي من لا مال له ولا مقبرة تؤويه كهذا الذي يرافقه ومشيا جنبًا إلى جنب ميت بمرافقة حي!

***

رص هيكله العظمي الأصلي بترتيبه الطبيعي وعاونته شبكته المعلوماتية في التنسيق المثالي دون معاونة هذا الذي وقف بعيدًا يبث شلال مشاعره في منبع التسبيح والاستغفار بصوت خفيض لا يفتر لسانه ولا تلتقي شفتاه وحمل ألبرت قلبه برفق يحدثه هامسا: لقد كنت تحمل همومي ما عادت الآن تثقلك يا عزيزي.

وضعه برفق وفوقه القفص الصدري.. هكذا يجب أن تكون.. في حماية وكرامة حيًّا أو ميتًا. وضع بقية الأعضاء وقام واقفًا ينظر لعمله المتقن وتمتم محدثًا الأرض: فلتستردي ما اقتُطع منك ولتهنأي

به حقًّا وواجبًا

وتقدم عمران بوجل وتعاونا يدا بيد ساعد بساعد حيًا بميتًا لينهال التراب ويواري سوءة قلوب حُجرت وعقول تَميكنت، انتهيا ووقفا وجها لوجه أحدهما يلهث والآخر فلا لهاث، اغرورقت عيناه ولسانه يردد:

-سبحان الله الخالق المصور

-ولكنهم هم من صنعوني وليس الرب

-وهل كانوا يفعلوا لولا أن خلقهم وأوجدك من البداية

-أهو من جعلهم يفعلون هذا بي؟

-لا بل هم مخيرون أكانوا يفعلوا أم لا، أما الله ربنا فهو على علم بالطريق الذي اتخذوه لأنفسهم يعلم ما هو آت والخيار لهم

-سيقتص لي؟

-سوف يسمح للحيوان أن يقتص مما أذاه أفيتركك دون قصاص!!

-وماذا عن أذاهم الذي حتمًا سيلحق بآخرون غيري أسيستمر طويلًا؟

-ليس هناك وقت طويل في الدنيا بل هي من أولها لآخرها

كساعة من نهار.

-إذن فلابد من الفراق

كان عمران يكافح هيجان مشاعره.. أحبه رغم اللقاء القصير الذي شَهِد صفوهما فأجهش بالبكاء يحتضنه بلا خوف وأخرج ما كان يكتمه بعناء.. بسخاء، امتصت ملابس ألبرت غزارة الدموع وكان ليتمنى أن يمتصها قلبه وتحرك ذراعيه ليضمه يلفهما حوله وما كف عن التربيت على ظهره وهو الأحق بالمواساة، ولكنه وجد في دموع رفيقه مصرفًا لحزنه هو، وجد في مواساته سكينة، هدأ عمران واستكان وابتعد عنه بوجه ذو حمرة وعينان تنافسه فقال ألبرت بكلمات متقطعة وكأنه يتكسر من الداخل:

-هل... هل لي... في الانضمام لشبكتكم عمران؟ أبعد ما خرجت الروح هل لها من قبول؟ هل.. ثم نظر إلى السماء بحياء واستطرد بصوت ضعيف.. هل سيقبلني؟؟

وهنا انهار عمران تماما خر ساجدًا بصوت ملتاع يردد:

رحماك يا الله يا واسع يا باعث يا باقي.. رحماك يا واسع يا باعث يا باقي رحماك يـــ..

وفزّ من سجوده قائمًا ينظر له نظرة وداع تتقطع منها أوصال اللقاء، ثوان مرت كسويعات وهما يتبادلان عهود الفراق ومن ثم

انطلق.. انطلق راكضًا.. بعيدًا.. من العجز من الضعف ومن الحيرة، ابتعد وقد ركب الفراق وما حيلة سواه وترك خلفه ألبرت الذي مد يديه كأنه سيبطئه.. سيمنعه.. إلا إنه رد يداه بجانبه وأغمض عينيه إغماضه تنبئ بدموع حاضرة وفتحهما لتنحدر على وجنتيه كلآلئ صافية، فنظر إلى السماء بامتنان فلقد حلت قطرات مطرها مكان دموعه وكأنها تُنفس عنه ما لم يعد يستطيعه، دموعًا وهبته واستبشر من ربها ما لا يقل خيرًا من هطول المطر على أرض جرداء.

***

احتكار

لم يمهله الصانع أكثر من وصوله إلى إنجلترا حتى طرح عليه مبتغاه:

-لا طلب لي الآن سوى أن تتواجد في مختبري تحت عيني وسأوفر لك حياة تشبه حياة الخارج وسأجعلك تتعامل مع البشر هنا بدون عزلة كما السابق، ستعاون العلماء بل وسأصب في مخك أي دراسة تريد أن تدرسها وتكون عالم تجري تجاربك وتنمي أفكارك وتكون فوق الجميع فأنت دمج مبهر بين البشر والآلة الآن سيكون لك مستقبل مرصع بالخلود واللاحدود بل وستتمكن من اكتشاف نظريات ما اكتشفها قبلك من إنسان قط، تعال وعش معنا هنا ولا يكن لك بين البشر في الخارج أدنى وجود؟ ما شرطك هذه المرة لتستجيب؟

ابتسم ألبرت وفي عينيه المكر وقال: لا شروط

عبس البروفيسور وقال بحذر يطوي تهديدًا يكتمه: وهل هذا يعني الرفض؟

-لا بل الموافقة، أنا آت في حصنك للأبد ولن أضع شروطًا البتة. ثم تلاشت ابتسامته وعزم على فعل ما.. وعد به! ولم يمر من الوقت الكثير حتى هرع طاقم الصانع ليلتف حوله بعد صرخته

الملتاعة وما كان حالهم بأفضل منه إذ هلعوا وانخلعت قلوبهم وهم يروا كل ما فعلوه يشرع في الذوبان ظل يضغط في أزارا لوحة التحكم بجنون في محاولة يائسة لإبطال التحكم الذاتي لخلايا ألبرت وهو يصرخ قائلًا:

ألبرت أتسمعني؟؟ أخرج فورًا من الحوض مازال هناك أمل لإصلاح ما تهتك من جلدك كف عما تفعله أتسمعنـــــي.

وبكى بعض المحيطين على إنجاز استهلك من مجهودهم وأموالهم وتمويلهم الكثير بكوا لشرف علمي كانوا ليحظوا بوسام براءة اختراعه مع قائدهم الذي مال صوته إلى البكاء تهدجًا وقال بجذع: ألبرت بني قم لا تهدمني لا تقتل نفسك. وجه ألبرت كلماته له من داخل حوض الاستحمام الخاص بشقته النائية وقد ملأه بمحلول مذيب وانغمس فيه إلا رأسه يقول: لقد كنت مخطئًا بروفيسور ما كان العلم إلا ليخدم البشر ويوصلهم لحقيقة كل شيء من حولهم وليس لتمزيقهم والعبث بهم

-قم الآن ونتناقش فيما بعد سأفعل ما تأمرني به حتى ولو أن تثأر مني

-لا يستوي أن يكون أي شيء مباح، فإن انعدمت الحدود انعدمت البشرية

-ألبرت انهض الآاااان

-لقد طلبت مني المجيء إليك لوجود دائم في مختبرك وها أنا أوفي بوعدي ستأخذ هيكلي بمحتواه كما أردت أما جلدي فدعه يذهب في سلام كما ذهب جسدي الحقيقي، أنا أسترد ما لي عندك فقط إنها تكملة لطلبي الأول في دفن جسدي

-سأصنعك مجددًا لن أتركك.

همس ألبرت في ألم: كف أذاك عني وعن البشر، لا ترجعني إلى دنياك ولا تصنع ضحية أخرى فأنا كفاية وأنا فداء.

ضرب الصانع الجهاز أمامه بقبضة يده واتسعت عينيه ذعرًا وهو يرى الهيكل المعدني يظهر تحت المحلول الكيميائي.. يصرخ لاااا وألبرت ينتفض ويتفزز يغمض عينيه في تلذذ فقد وصل المحلول لما خلف جلد حيوان الخلد العاري ووصل إلى الشعيرات العصبية ومنها لخلاياه الأصلية التي ترجمت شعور الألم، ظل ينتفض ويردد.. الألمم، ثم شحذ عقله بصور محببه يراجعها كآخر شيء يراه

-ويليام ابني... زوجتي... أم ابني... إميلي... عـــ... عمران... عمران

ردد اسمه ثم سُحبت رأسه وانزلقت داخل الحوض ليغمره بالكامل ويـــ..

***

بالإكراه

كان ألبرت قد أعد خطته بإحكام وأرسل إلى إميلي ملف شديد الأهمية والسرية استطاع أن يستنقذه من براثن الصانع وما كان يتخيل هذا الأخير أن يصل ألبرت إلى ملف يحوي كود برمجي خبيث إن زج به في برمجته يتم تعطيل البيانات الخاصة بخلاياه البشرية لتنتزع منها الحياة الوهمية التي أُجبرت عليها، هذا لأن محلول الإذابة لم يكن ليتخلل المعدن الذي يحمي الخلايا بداخله فهي مازالت على قيد الحياة الشكلية.. ومع كثير من الحزن والانهيار ومجاهدة للتماسك والانصياع لمصير أبدي من فراقها له وبيديها نفذت إميلي كل تعليماته التي أرسلها بشرح سخي في فيلم تسجيلي وانقضى الأمر.

وأمام حوض النباتات البهي بداخل فيلا بروفيسور سبستيان وأمام نافذة غرفتها وقفا بحزن عميق هي و.. والدها بعد أن أتما سويًّا دفن تلك الحاوية المتطورة الصغيرة التي تحوي خلايا مخ ألبرت وسط النباتات بداخل التربة والتي ادعى والدها أنها أُرسلت له من مجهول معتبرًا أننا أهله يسلمون لنا باقي رفاته! كان يهدف إلى جعلها تقطع الأمل من رجوعه كما رجع المرة الفائتة وتدفن ما تبقى

منه بنفسها حتى تنهيه من وجدانها وتبتدئ حياتها من جديد.. أخيرًا تم دفنه كما كان يجب أن يكون أو بالكاد! ثبتت نظرها على موضع الدفن تتمتم بصوت حُشرج من كثرة البكاء وأيضًا من كثرة صده:

-ألا من تَتبع لهؤلاء ومحاسبتهم على ما فعلوه به؟

أشاح بوجهه بعيدًا عن مرمى عينيها وأخبرها:

-مؤكد شأنهم قانوني أما بشأن ممارستهم وما حدث لألبرت فسيخرجون لك وثيقة بخط يده على الموافقة على أي إجراء يجرى على جسده كهبة في سبيل العلم، أنا أعلم الكثير عن هكذا سبل وأنت مازلت صغيرة والأمر شديد التعقيد.

مسح على شعرها بحنو هامسًا: كوني بخير لأجل أبيك ألم تتمكني من تقديم المساعدة لحبيبك وأكملتي أمنيته بكل إخلاص فلم هذا الذبول؟ لا أنكر عليك حزنك، ولكن اسمحي لوميض المستقبل أن يشرق في عينيك.

نظرت له بعيون دامعة تحاول الإيماء بالموافقة إلا أن قدميها كانت أسرع في الركض للداخل، تتبعها بنظرته المشفقة حتى اختفت ثم التف ببطء ينظر لموضع ما تبقى من ألبرت وهو يزدرد لعابه وتلمع عيناه ويتفتح الحماس بداخله ويجتر من طموحه أعلاه ليخفضه أرضًا.. بل لأسفل الأرض.. قريبًا!

لم يكن هناك بد من زيارة طبيبة نفسية والتي قالت لإميلي بثقة:

-أنتِ في حاجة لشيء يبقيك في بيت أحزانك لتصنعي فيه ذكريات أخرى تزاحم القديمة فهو هروب في محل الألم يفتته وينتزعه، وإن نصحتك بالرسم سترسمين مفقودك وترسمين ما بجوفك من معاناة تخطيها لوحات، وكورسات الموسيقى فكرة فاشلة فسيتنغم عقلك بسيمفونيته الخاصة نحيبًا عليه فوق درجات سلمها الموسيقي، أما عن العقارات والمهدئات فأنت مازلت شابة صبية متفتحة لا تهدمي عزيمتك بعقارات لن تعلمي مداها ولا تأثيراتها الجانبية بل والأبدية، أنا أريدك أن تتعلمي فن حياكة يدوي ذو تفاصيل دقيقة وغرز ضيقة وتفاصيل رغم جمالها مزعجة تعتمد على إتقان الأعداد والتزايد والتناقص وغرزة واحدة خاطئة يُبنى عليها عمل غير متناسق الأركان فتشحذي جل وعيك على شيء تصنعه يداك وليس مجرد سترة تصنعيها لنفسك ثم يتملكك الملل بل تجعلي من الهواية يد تنتشل الضعفاء من فقرهم وجوعهم.

وتمامًا كما نصحتها الطبيبة اقتنعت وبدأت تعلمت وفشلت ثم حاولت فأبدعت، وبعد أن كانت هوايتها الجلوس أمام نافذة غرفتها المطلة على مقبرة ما تبقى من حبيبها تسقيها بنوعين من الماء عذب من الإبريق ومالح من عينيها أصبحت بالكاد تراه.. دومًا

منشغلة وعلى عجل أسرعت الخطى وهي ترتدي سترة وردية ناعمة واسعة بسيطة على بنطال أبيض مع حذاء رياضي يمتزج فيه الوردي بالأبيض تحمل حقيبة ظهرها البيضاء الممتلئة محشور هاتفها بين كتفها ووجنتها تكتب خلف محدثها ملاحظاتها، كانت ذاهبة لأجل مهمة تقوم بها منذ شهور، تجمعية لا بأس بها من منتوجاتها الفنية تشارك بها يد بيد مع جمعية خيرية تذهب لتراها في وسط المعرض السنوي الكبير وتراقب الربح الذي ترتوي به من ضحكة عيون الفقراء وتُشبع بصمت أنين بطونهم كما أشارت لها الطبيبة بل وتسهم في كفالة صبيين أحدهما تفوّق في دراسته بالكهرباء والآخر ينشد ابتكار وقود من مركبات طبيعية ولم تنتبه وهي مارة من إبريق الماء الذي جف جوفه من الإهمال عكس صاحب القبر الصغير بجانبه.. عكسه تمامًا...!

ومضى يوم الإنجاز يليه نهار آخر طرحت فيه إرهاق الفترة السابقة مع طرح غطاء فراشها عن جسدها الرشيق وقفزت في حماس فاليوم اجتماع العائلة وقد دعت مارثا لتقضي معها اليوم حتى العشاء، أصدر هاتفها جرسه فالتقطته بخفة: نعم مارثا هل وصلتي حسنًا سأستقبلك في الخارج. ركضت بسعادة لتجدها محدقة تجاه نافذة غرفتها ولاحظت أن وجهها ليس وجه منتظر، بل

وجه متعجب.. أو مرتاب! ضحكت وهي تقف أمامها: ما بك هل شحن بطاريتك أوصلك إلى هنا وحسب! تعالى إلى الداخل. لم تنظر إليها، بل رفعت إصبعها تشير إلى ما خلفها: ما هذا؟!!

ابتسمت إميلي فخرًا وقالت بسعادة:

-كنت أنوى أن أجعلك تشاهدي غرفتي في حلتها الجديدة لقد لونتها بنفسي منذ عدة أسابيع وحِكت لها ستارة خصيصاً من أجود أنواع الخيوط إنها مبهرة أليس كذلك؟

-بشع حقًّا بل إنه أمر مخيف

وكزتها بغضب مرح: كفي عن مزاحك الدائم يصبح سخيفًا في غير موضعه.

هنا نظرت لها مارثا وهي مشدوهة:

- ستارة رائعة غطى عليها قبح زرعكم الجديد. ابتسمت إميلي بجانب شفتيها تقول بحيرة وهي تلتف لترى: زرع! أي زرع تتحدثين عنـــ.. وفرغت فاهها تنظر إلى ما لم تراه من قبل وهو أمام غرفتها! وكأنه نبت في لحظة تتمتم: ما هذا أنا أراه مثلك للتو. أمسكتا بيدا بعضهما واقتربتا من النبات المريب.. أهذا ما يقال عنه زرع شيطاني، أم أنه يشبه الشيطان بحق! ازدردت مارثا لعابها

وهي تتمتم بخفوت وكأن للنبات أذن تسمعها: بل إنه يشبه زهرة «الرافليسيا الأرنولدية»[1] كثيرًا غير أنه أبشع لم أرى في حياتي نبات غريب الأطوار! إن الجذع النامي في منتصفها يشبه ما ينمو في زهرة « الأمورفوفاليوس»[2] ولكن ما هذا النبات الذي جمع بين الصنفين!

تصميم مشوه لنبات كالتمثال يشبه في قاعدته زهرة الرافليسيا الأرنولدية ويخرج من وعائها جذع كبير كالذي ينبت وسط زهرة الأمورفوفاليوس!

لابد أن أخبر أمي علها تستخرج منها ما يعوضها عن خسارتها في العمل.. بل إنه سبق صحفي

-لن يحدث هذا مارثا. قالها صوت هادئ جاد فالتفتتا فإذ بالبروفيسور سبستيان خلفهما وقد رسم ابتسامة روتينية:

-مرحبًا سعيد بقدومك... لقد أوصيت على نبات جميل ومميز لكي يزرع أمام نافذة إميلي حتى يوارى ذكرى المكان ويبدو أنه قد حدث خطأ ما في الطلبية لذا سأتحدث مع المختص وأنت لا تخبري والدتك رجاء فهذا النبات لا يعتبر ملكنا الآن. تنفست إميلي

(1) وفقًا لجريدة «ديلي ميل» البريطانية تعتبر هذه الزهرة الأكبر في العالم من حيث الحجم ويمكن العثور عليها في سومطرة ماليزيا وإندونيسيا ينبعث منها رائحة بغيضة كاللحم الفاسد تعتبر زهرة وعائية كما الفطر

(2) الأمورفوفاليوس يصل طولها إلى أكثر من 3 أمتار؛ سُميت بزهرة الجثة

الصعداء أما مارثا فقالت باحترام: نعم بالطبع أكيد.. لابد أن يكون كذلك

-سأصحبكما إلى مكان لطيف ليوم العطلة ريثما تُحل المشكلة. أومأتا برأسيهما في استسلام، واحدة ربت على ظهرها برفق يدفعها أمامه لمكان السيارة تخطو على قدر خطوات قدميه الثلاثة، والأخرى رجعت لغرفتها لترتدي ملابس مناسبة، تحاول ألا تختلس النظر للنبات مع أنه خيل إليها أنه هو الذي يفعل...!

شعرت بثقل في قدميها وهي تترجل من سيارة والدها بعدما انتهى اليوم ما بين سهو عن الواقع وشرود فيه عكس ما توقعت من مرح وسعادة، هذا النبات الذي يقبع مكان ألبرت عبث بمواطن الحزن حتى استفاق وقضم قضمه كبيرة من يومها كستارة غرفتها التي قد نقصت بمقدار تلك القضمة! لاحظت أن ستارة نافذتها تبدو غريبة هُرتئ جزء كبير منها، ارتدت إلى الخلف بانزعاج حينما وجدت الجزء الناقص قد استقر على أوراق النبات القبيح بكيفية تجهلها تمكن الخوف من قلبها وترجمته في مناداة على أبيها بأعلى صوتها وما أن رأى ما حدث حتى رفع حاجبيه بدهشة حقيقية.. كيف حدث هذا؟، تمتم هو فصاحت هي: لا أريد أن أعلم ما أجهله، من فضلك الآن وليس الغد تُخبر من أتى بهذا النبات أن يزيله.

لم تنتظر ردًا، بل انطلقت كالصاروخ إلى الداخل ومن خلفها

فتح البروفيسور فاهه ينظر بريبة لهذا الوحش الذي رباه وما لأحد علم به سواه غير أنه يبدو أنه خرج عن السيطرة...!

استلقت على فراشها وقد حاولت تشتيت تفكيرها تقبض بقوة على غطائها تلفظ تنهيدة حارة أخرجت شيء من قلقها ليتسع جفنها للنوم الذي ما إن وصل لم يصل وحيدًا، بل الأول أغلق باب عينيها والآخر فتح باب النافذة.. جذع يتموج لونه ما بين الأخضر القاتم والبني الفاتح مدبب طرفه يزداد سمكًا كلما اقترب من الزهرة الدميمة الكبيرة بالخارج، امتد الجذع ببطء غير المحبب وبدت أوراقه البسيطة التي تشبه العين والأُذن والتي تتناثر فوقه في شُحم معطلة فلا ما تشبه الأذن تسمع ولا ما بدت كالعين ترى، بدا وكأنه يتلمس طريقه أو يتتبع الحرارة.. جسد تنبعث منه الحرارة على اليمين فوقف زحفه وثبت لحظات ثم تحرك بحركات مريبة لا تشبه أي شيء ولا صوت سوى أنفاس إميلي مع حفيف ما يفعله، مُط ليزحف على فراشها كالثعبان الغليظ فجأة فتحت عينيها على اتساعهما بلا حراك فتحت فمها لتصرخ ثعبان ممدد بجانبها على الفراش فالتقط من فمها ما دل على اتجاهه فامتد مع أول صرختها المبتورة ليلتف حول رأسها ويسد فمها بقوة، ذعرها فاق كل شيء حتى قدرة عقلها على التفكير تحاول التخلص منه حتى سكنت محاولتها لتتحول إلى ترقب فهو لا يتحرك أيضًا ولا يحاول لدغها.. لماذا لم يلدغني!، وهنا

انتبهت لملمس الشيء الذي يقبض عليها وتقبض عليه ووعت أنه النبات! ثبت المشهد ولاحظت أنه.. يكتم فمي فقط وابتعد عن أنفي لأتنفس! هل للنبات عقل ليقصد هذا أم لم يقصده؟ ثم بدأ يسحب نفسه من حول رأسها بدأت تنظر له ككل وقد مَثل أمامها بالكامل جذع غريب الشكل وحركته تثير القلق يتمايل بشكل مريب، متصلبة كلوح من الثلج وهو يواجهها بوجهه المدبب تنظر إليه بعينين مذعورتين تتمتم بخفوت:

-مـ ما الذي تريده مني؟

شعرت بحمقها فاستطردت: إن كنت تفهم.. تفهمني؟

لم تنتظر منه إجابة، ولكنها حاولت تحريك قدميها لتهبط من فراشها في محاولة يائسة للهروب، بروية وهي مثبته وجهها تجاهه تظن أنها تقنعه بوجودها لأطول فترة ممكنة حتى تلامس قدميها الأرض وتركض بأقصى سرعة.. هيا إميلي تستطيعين فعلها.. أين الأرض تبًا للفراش المرتفع

وبدأ هو يتحرك بشكل أكبر تتردد حركته ويتمايل بغرابه هرولت راكضة نحو الباب تهرب من وحش أسطوري إلا أنه امتد أمام قدميها حتى تتعثر وتقع!! وقعت وما سكنت، بل زحفت على مؤخرتها تواجهه وتبتعد عنه إلى الخلف تقول بانهيار وقد تيقنت من

أن لديه عقل بكيفية ما.. أرجوك ما أنت؟؟ أنا لن اؤذيك لا تؤذني دعني ولك البيت سنتركه لك فقط أفسح طريقي أتوسل إليك.

التوى بشكل لولبي يصر على توجيه طرفه المدبب في مواجهتها وكأنه مستشعره كاشف الحرارة، بل وذبذبات الصوت وخيل إليها أنه سينقض يشوه وجهها فشرعت في الصراخ بهستيرية وهي تلوح بذراعيها أمام وجهها بعشوائية فتلقت منه وخزة في صدرها ابتلعت على إثرها صرختها وسعلت بدلًا منها وزحف نحو زاوية الغرفة.. شهقت حينما رأت خيوط ستارتها التي قطعها وليس هذا ما أفزعها، بل ما بهتها هو أن الخيوط تشكلت كما أنها حروف!! لم تستطع قدميها حملها فزحفت مثله تخطو كذوات الأربع نحو الخيوط وهو مسجى على الأرض ساكنًا تحذو حذوه يرتج جسدها مرتجفة كعصفور مبلل بجانب جذعه الأليف! شحذت تركيزها للفهم

A..N..H..V ...من بعد الحروف فطنت لبعض الكلمات, MAKE, DO NOT, ViCTIM, ANOTHER حتى كونت جملة تُفهم:

«لا تصنع ضحية أخرى فأنا فداء»

وضعت كفيها على وجهها تبكي بحرقة تحرك رأسها بجنون نافية ما يحدث تقول بهلع:

-لا ليس ثانية لا تقول أنك ألبرت لا لا يمكن يستحيل هذا

جنوني هل مت أنا وذهبت إلى الجحيم؟؟

وعلى عكس المتوقع أن يتمدد ويلفها بحنان ليكتمل كفيلم سينمائي، بل انسحب للخلف خارجًا من النافذة إلى زهرته الكريهة حيث ينتمي وكأن شيئًا لم يكن ظلت راقدة على الأرض بنصف وعي أسالت اللعاب من فمها خيوطًا تردد.. أما للموت إليك من سبيل!

ثم إن كانت الجملة كما خمنتها فمن يقصد؟؟ وجاءتها الإجابة على حين غرة صوتًا سمعته بالخارج فهرولت بحيطة وحذر وجدت والدها يقترب من النبات لعله جاء لينزعه وهمت تستغيث به وتحذره وما أن فتحت فمها حتى أغلقته وزادت من اتساع عينيها حينما سمعت صوته المنخفض يتحدث:

-كنزي الثمين لقد نضجت وأصبح لك إرادة خاصة لم أكن أعلم أن للأمر جانب أكثر إبهارًا مما كنت أحسب جدواه.

ارتدت تلصق ظهرها بالحائط يعلو صدرها ويهبط من فرط.. كل شيء، ثم نظرت مجددًا من طرفها الخفي تراه يلتقط عينة منه وحينها رأت الجذع يمتد فالتقط من جيبه بخاخ غمر برذاذه النبات فسكن وارتد لوضعه الأصلي ثم انطلق مسرعًا عن عادته إلى معمله الذي لم تفكر مرة في دخوله.. حتى اليوم.

***

تشعر بالغربة وحيدة كسنام جمل عربي ورغم كل ما يعتريها من أسئلة وغم إلا أن المسئولية كانت أكبر.. سأرد لك صنيعك معي ألبرت وأنقذك مرة أخرى كما أهدرت حياتك كلها دفعات بسبب تضحية منك لأجل إنقاذي. إذن أبي هو الصانع -بالكاد تحفظ وعيها- اتضح مبرر إحضاره الخلايا لتدفن هنا ليستفيد بمزيد من التجارب على بضعة من مخ ذاك البشري المسكين.. إن أبي شاذ علميًّا!

-لربما لو رُدِع ما كان تمادى - حسنًا إن كان أبي هو حقًّا ذاك المجهول فلا سبيل إلا محاولة التسلل إلى المعمل لمعرفة كيف أُبطل الجريمة لابد من انتشال خلاياه والرمي بها في قعر بئر سحيق بعيدًا عن شرور البشر المتطايرة.

تحفز كل ما بها للحظة الحاسمة أمسكت في يدها فأس مُزارعهم لتضع خطة بسيطة لا خطوات فيها سوى القطع السريع والهرولة بعيدا لإلقائه وترجع لتواجه وجه أباها كيفما كان فلا ضير

سلاحي في يدي.. شهيقًا عميقًا ثم هيا.. خرجت كالطلقة ورفعت ذراعيها بأقصى قوة ثم توقفت فارغة فاهها: أين النبات!! اخفضت ذراعيها بيأس فلقد اقتُلع كل الجزء السفلي من الطين، تحولت نظرتها لعبوس شديد قبل أن تقول من بين أضراسها..

البروفيسور سبستيان!

لم يكن هناك متسع من الوقت لتفكر فلابد من إنقاذ كليهما من كليهما، باتت الليل كمن يصارع الكوابيس حتى استيقظت كمن بات على جمر نفث دخانه على وجهها ليترك بصمته كهالات سوداء تحت عينيها المحمرتين، تتصل بصديق والدها المقرب تخبره أن والدها ليس على ما يرام يؤثر الوحدة ويقصي المقربين فلتأت لتؤنسه وأوصته ألا يخبره بأنها هاتفته ودعته ليحتسي معه قهوته الساعة وقد كان.. فوجئ البروفيسور بقدوم صديقه واضطر لترك مخدعه السفلي ليقول لها وقد تصنعت الانشغال بالحياكة حتى لا يرى وجهها المرهق:

-سأجلس مع دكتور آرثر قليلًا في غرفة الضيوف سأحاول أن لا أتأخر.

-كن على راحتك أبي اعط له مزيدًا من الوقت و... شكرًا على التخلص من النبات.

تمتم بما لم تفهمه وهو مستدير ليصعد إلى صديقه وهي تكمل.. كن على راحتك تمامًا.. بروفيسور

دخلت معمله الذي يحتوي على بعض القنينات والملفات وجهازين حاسوب وعينات في حاويات زجاجية ومولد كهربائي

و.. هو.. ألبرت أو النبات، مرت من جانبه كأنما تمر من جانب إنسان متحفزة من رأسها لأخمص قدميها متوجسة أن يجدها صانعه هنا قبل أن تتم مهمتها، أثار فضولها حاسوب مفتوح حركت أناملها على لوحة اللمس فأنارت الشاشة لترى ملف مفتوح اسمه روبوت عضوي«A»

وبالأسفل ملف آخر مُسدل للأسفل باسم روبوت نباتي1، تمتمت بذهول: أبي مهووس بما ليس له حق فيه إن للنبات حق في قوله، لابد أن يتوقف عن هوسه بت أخشى على نفسي

من توترها لم تقرأ بانتظام، بل باتت تخطف بعينين زائغتين:

-إمداد النبات بخلايا جذعية بشرية... دمج البروتين... أحماض أمينية... دمج مواد كـ «حمض الكاكوديلك أسيد» و «الجرامكسون» إلخ مواد قد تميت النبات العادي ولكنها تخدر الروبوت النباتي المصنع، إذن هذا هو البخاخ الذي رش منه عليه، أكملت:

إمكانيات «الإنسانباتوي»: تتبع الترددات الصوتية والأجسام الحرارية، فئة جديدة تحت فصيلة الأولى من نوعها.. بنية تشريحية.. نبات وعائي.. مستوى الرطوبة الأرضية.. تحورات الجذر

زاغت عيناها بين المصطلحات والموثقات فابتعدت مرتابة من

أمام الحاسوب بمصائبه وكأنه سينفجر في وجهها، ها هو المنجل الذي اقتلع به أبي النبات يفي بالغرض، لهثت كمن خرج من سباق.. هاك ألبرت ما تطلبه.. رفعت ذراعيها وبعزم هوت..

هوت يد قوية على كتفها تسحبها إلى الخلف، انتفضت بقوة والتفت بعنف لترى والدها يرمقها بنظرة حانقة يجز على أسنانه: هل جننت ماذا تفعلين؟

انهارت باكية ألقى بالمنجل يقول بغضب:

-بت تعلمين إذن كل شيء الآن، أنا لست حانقًا قدر حنقي من أنك بعدما علمتي تريدين بتر إنجازي.

قطع بكائها مقولته «إنجاز» كصلصلة جرس صارخ في أذنيها وهتفت:

-إنجاز أن تعبث ببشر يتجرع العذاب منك ألوانًا.

نظر لها يحذرها من أسلوبها الذي تمادت فيه ولأول مرة

-أنتِ لا تفهمين شيئًا اتركيني وعملي واذهبي لتلهي بخيوطك الملونة.

تقول بدهشة عارمة:

-أهكذا ببساطة... تؤخذ قضية إنسان متهتك ببساطة هكذا!

تنعتني بالطفلة لأنني أهتم ليس لشخص أحببته أو كان الآن لزوج لي ومنه أحفادك وإنما لروح من الممكن أن أحل محلها يومًا ما بروفيسور.

نظر لها نظرة نارية وهو يغلق حاسوبه ويتهيأ للخروج بها من المكان يمسكها من ذراعها يسحبها إلى الخارج فتوقفت منتزعة ذراعها بقوة وبعزم تقول:

-لا أبي لن أخرج حتى أحرره

-إميلي كفي... صاحت:

-أنا أخشى عليك منه أيضًا ألا تفهم أن له إرادة وثأر الآن؟!

-إميلي قلت لك كُفي...

لاحظت في عينيه قلق ونظرة لما خلفها فالتفتت لتجد الجذع وقد بدأ في التمدد يتحرك بحركته المهتزة المقيتة خافت رغم عملها لصالحه، وفهم هو أن المارد يقوم فهمس ببطء رغم أنه يعلم أن ليس من خصائص الإنسانباتوي السمع:

-أنتِ أقرب لبخاخ المخدر التقطيه وتحركي بسرعة فهو يتبع حرارة الجسد

بخطوتين واسعتين تصل وتسلط البخاخ عليه لتخمده فشهقت

بارتياع لمشهد كانت تخشى منه ففور ما انقضت على البخاخ كان الجذع قد انقض على عنق الصانع يلفه بإحكام، أخرسته الفاجعة وازدرد لعابه بألم: إميلي إنه خانق.

ارتعدت تصرخ بهستيرية.. لا لا أرجوك ألبرت اتركه

امتدت رأس الجذع تواجهها في حركة اهتزازية حتى اتجه نحو الأرض يتحسس يجوب المكان الذي بات صغيرًا عليه وقد طال عنقه، فهمت وتوقعها صحيح أنه يحاول البحث عن شيء لتقطع عنه الحياة، وانخفضت يرتج جسدها كله تلتقط المنجل حتى جاء صوت والدها خافتًا بعد أن استطاع حشر أصابع كلتا يديه بين عنقه وبين الجذع ليخفف من ضغطته عليه:

-لا تفعلي

-أنتَ تريد الحياة وهو يريد الموت وأستطيع إرضائكما فلماذا تمنعني؟!

صمتت على وخزة في صدرها وكأنه يستحثها على الأمر شعرت بخدر في ذراعها الموقف أكبر من طاقتها.. الأرض تميد بها تخشى أن تفقد وعيها وحينها ماذا سيفعل بهما إنسانباتوي مشوه ومشوش، لم يصبر بعد ذلك وما كان له أن يفعل فارتج ارتجاجه عظيمة شهقت على إثرها واتسعت عينا الصانع رعبًا ثم كشر الجذع عن أنيابه..

وظهرت فجأة على طوله أشواك كبيرة مدببة حامية كالخناجر في جميع الاتجاهات تلفه

لاااا أبي..

انتبهت للخناجر التي غُرست في عنقه حشرجة صدرت منه كأرعب مؤثرات صوتيه لمشهد مأسوي، طفح كيله وانتظر طويلًا حتى اعتصر من كان يومًا مثل أبيه يجله ويحترمه ويتمنى جواره والآن وبشيء من الوعي وكثير من عدمه بث معاناته أشواكًا في حلق من دمره.. الذي زاغت عينا ابنته مع مرآه المؤسف وانطلقت من حنجرتها صرخة مدوية يكاد يتخطى صداها ما بعد حدود كنسينجتون وبكل قوتها هوت على عنق الزهرة لتقطعه بضربة واحدة بعدها أظلم كل شيء.. للجميع

وما عاد بعدها للموت أي بقية.